ضيفة الفجر

مجموعة قصصية

إحسان كمال

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

الاخراج الفنى : محمد المحجوب

من القدم الى الرأس

لا يدرى ما سر ذلك الضيق الذى يحسه هـذا الصباح ، انه يتنفس بصعوبة ، وكأنمـا انتقل الى احدى تلك البـلاد الافريقية التى ترتفع كثيرا عن سطح البحر .. والتى يقولون ان هواءها الثقيل يجعل الأنفاس تضيق ، أو كأنما قد وضـع فوق صدره حجر كبير ، أيضـا يحس بدق رتيب ومستمر فى رأسه ، هل هو أمر نفسى ؟ .. ضايقه أحد بكلمة أو تصرف ؟ لكنه لم يلتق بأحد بعد ... هـذا اليوم ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد حدث بالأمس أو فى أى يوم سابق ، لأنه حتى الصباح المبكر ... عندما استيقظ من نومه وبدأ يعد شايه وافطاره .. لم يكن يحس بأى شىء غير عادى . ! ..

وصل الى الموقف .. وجد سيارة الشركة واقفة فأسرع يستقلها ، على غير العادة كانت كافة أماكن الجلوس بها مشغولة واذن فسيضطر للوقوف طوال الطريق ...

انطلق الأتوبيس فى رحلته اليومية ، الطريق ملىء بالمطبات ، كلما صادف الأتوبيس احدها اهتز بشدة ... فيتأرجح « محفوظ » معه ، بدأ يحس بوخز فى أصبع قدمه الكبيرة مع كل اهتزازة ... آه لابد هناك مسمار فى حذائه ، غريب جدا ... كيف لم يحس بهذا المسمار قط طيلة رواحه وغدوه داخل شقته ؟ فبالطبع لو أحس به لكان استبدل بذلك الحذاء حذاء آخر ، اذن فالتعليل الوحيد ان المسمار لم يبدأ بروزه من بين طيات جلد الحذاء ـ ليلامس أصبع قدمه ـ الا بعد ركوبه السيارة ، أو ربما بعد خروجه للشارع ... لكن ذلك البروز ـ ومن ثم الوخز ـ كان بسيطا فلم يتنبه ، لا يستطيع أن يقطع بالضبط ، المهم انه سيكون عليه ان يحتمل هذا الوخز القاسى طوال مشوار الأتوبيس الطويل الى مقر الشركة ... فى احدى المدن الجديدة بالصحراء .

هكذا كما تقول الأمثال تجىء الطوبة فى المعطوبة ! حيث انه دائما يحضر للموقف مبكرا ... فيجد العديد من مقاعد الأتوبيس شاغرة ... ونادرا ما وقف ، فاذا هو اليوم يقف ... وهذا الخازوق أسفل قدمه ! ..

راح يتململ ... واهتزاز الأتوبيس لا يتوقف ... ووخز المسمار فى لحم قدمه بدوره لا يتوقف ، بل انه يتزايد ... ليصبح مع مرور الدقائق كما حلقة نار تلسعه ... أو حية متوحشة تلدغه ! ينظر فى ساعته ... عقاربها لا تكاد تتحرك ... أو تتحرك بصعوبة ، والطريق كأنه يطول ويطول ... أكثر مما اعتاده كل يوم ، هل تراهم نقلوا مقر الشركة الى مدينة أخرى أبعد من مدينتهم المعهودة ؟ .. خيل اليه ان الأتوبيس سيظل يسير الى نهاية اليوم ... أو ربما الى نهاية الحياة !! ، أما لهذا السير من آخر ؟ ..

أخيرا وصل مقر الشركة ... لكن عذابه لم يكن مقدرا له أن ينتهى ، من سوء حظه ـ مرة أخرى ـ انه يعمل بالتفتيش، أى لا يجلس الى أحد المكاتب كأغلب موظفى الشركة ... لكنه يتنقل خلال ساعات العمل من مكان الى آخر ..

طيلة مروره والوخز فى قدمه يزداد ، دلف الى المصعد ... سيذهب الى مكتبه بالدور التاسع كى يرتاح قليلا وليكن ما يكون ! .

ترى الا يستطيع مدكور ـ فراش مكتبه الأمين ـ التصرف فى الأمر ؟ ، لا يظن ... بل مؤكد لن يكون فى مقدوره عمل أى شىء ، فطبعا فى المدينة الجديدة لا توجد محلات لتصليح

الأحذية ... بل ولا حتى لبيعها ... انه لم يكن ليتأخر عن شراء حذاء جديد مهما أربك له ذلك الميزانية ! ، أيضا فانه لا يتوقع وجود شاكوش أو شيء ثقيل يمكن لمدكور أن يدق به المسمار ، وحتى لو وجد الشاكوش فانه لن ينفع ... حيث المسمار لن يكون فى متناوله ... انه فى مقدمة « بوز » الحذاء ، ولذلك فان المشتغلين باصلاح الأحذية يستخدمون أدوات خاصة ... مختلفة ..

راح يحدث نفسه :

ـ ما هذا اليوم العجب ؟ ... ألا يكفينى ضيق صدرى والدق الذى يكاد يفلق رأسى ... حتى يجيء هذا المسمار اللعين ويخز قدمى ؟ ! ..

فجأة خطر له أمر ... أليس محتملا أن تكون آلام وخز المسمار هى نفسها سبب الدق فى رأسه ؟ ، من يدرى ... سمع كثيرا أنه يوجد شريان يوصل ما بين الذراع اليسرى والقلب... حتى لتكون أول مؤشرات الذبحة الصدرية فى الذراع ، فما الغريب أن يكون هناك أيضا شريان أو عصب يوصل ما بين القدم اليمنى والرأس ؟ ! ..

رأى معه فى المصعد طبيب الشركة ... فاذا بالسؤال ينفلت منه قبل أن يدرك الى أى حد كان سؤالا سخيفا ... سأل بغتة ودون أى مقدمات :

ـ قل لى يا دكتور طارق ... هل يوجد عرق أو عصب أو أى شىء من هـذا القبيل يوصل من القدم الى الرأس ؟ ! .

ذهل الطبيب للسؤال فهتف فى دهشة :

ـ نعـم ؟ ! ..

غمغم محفوظ وهو يتنبه لنفسه :

ـ آه .. كم أنا متعب ! ..

ـ ماذا بك بالضبط ؟ ..

قبل أن يفتح فمه وصل المصعد للدور الرابع ... وهو دور العيادة ، فغادره الطبيب وهو يؤكد على محفوظ :

ـ اذا كان هناك أى شىء يتعبك فتعال الى فى العيادة ... بعد ربع ساعة ..

بعد لحظات وجد محفوظ نفسه يضحك بصوت عال ... رغم آلامه ، مما جعل جميع من بالمصعد ينظرون اليه فى دهشة ، تصور نفسه فى العيادة يرد على سؤال الطبيب التقليدى :

ـ هيه ... مم تشكو ؟ ..

ـ أشكو من آلام فى قدمى يسببها ذلك المسمار الذى يخزها باستمرار !! ..

لكن هذه المفارقة لفتت نظره لأمر مدهش ... لا يوجد شخص مهم جدا أو شخص تافه جدا فى جميع الأحوال ، فى هذه اللحظة بالذات ... وبالنسبة اليه هو بالتحديد ... يجد أن عم بشارة « العتقى » على ناصية شارعه ... أكثر أهميـــة ونفعا من الدكتور طـــارق ، وأن احتياجـــه الى الأول وهو العجوز الأمى ... أكثر الحاحا ... بل تلهفا منه الى الأخير ... بكل ما حصل عليه من علم ودراسة وتجارب ، تمتم فى دخيلته :

ـ ألا ليتك الموجود فى العيادة الآن يا عم بشارة ! ..

وجد نفسه يضحك مرة أخرى عندما تخيل ذلك العتقى يرتدى البالطو الأبيض ويجلس على مقعد الطبيب ! ، حمدا لله أن جاءت ضحكته هذه المرة بعد أن وصـــل الى مكتبه ... والا لظن به مرافقوه فى المصعد الظنون !!

خلع فردة حـــذائه فأحس بشىء من الراحـــة ، مد يده يتحسس المسمار اللعين ليجده بارزا بوضـــوح أمسك بتمثال صغير على مكتبه وحاول أن يدقه به .. لكن جميع محاولاته باءت بالفشل !

رن جرس التليفون ... كان رئيسه يطلبه ليمر معه على بعض الوحدات ، أسرع يرتدى حذاءه وهو يسخط ، ما كاد

يبدأ السير حتى عاد الألم بأقسى مما سبق .. حيث مكان الوخز في قدمه كان قد التهب بشدة .

التقى بالمدير .. بدأ الاثنان يسيران .. عرجا على أكثر من قطاع ، أصبح الوخز في أصبعه شديد الوطأة ... والدق في رأسه أيضا ... فوق قدرة احتماله ، مع ذلك يتخذ من ابتسامته ستارة تخفي ما بداخله ، والمدير ما يزال يسير ، يسير ويتحدث مناقشا محفوظ في أمور بدا له أنه قد قصر فيها ، ردود محفوظ بدأت تفقد اتزانها ، ثم اذا به يخطىء في حق رئيسه خطأ بالغا ... من خلال بعض الكلمات التي بعثرتها شفتاه ، صاح المدير بحدة وقد فاحت رائحة حريق الكلمات على فمه :

ـ هكذا ؟ ! حسنا ، سأقدم شكوى في حقك للشئون القانونية ... فاستعد للتحقيق .

في مكتبه جلس على كرسيه .. أو على الأصح ارتمى فوقه ، وهو يكاد يغمى عليه ... من الألم ومن الأسف ، آخر شيء كان يتوقعه أن يحال الى التحقيق ، الكل يصفه بالدماثة ... فماذا دهاه اليوم ؟ ! ، تمتم في دخيلته :

ـ فهمت الآن سبب ضيق صدري والدق في رأسي من الصباح ... كانت كلها ارهاصات مستقبلية عما سيحدث لي

اليوم من متاعب ومشاكل ، اننى لا أدرى كيف قلت للمدير ان نظرته غبية ومتخلفة ... وهو الادارى القـدير ، وحتى لو كانت نظرته متخلفـة فعـلا فهل من اللياقـة أن أقولها له هكذا .. فى وجهه ؟ !

دق التليفون مرة أخرى « ماذا وراءك يا وجه المصائب ؟ »، كان الأستاذ حنفى ملاحظ الوردية ... يطلب منه النزول الى العنبر لمعاينة البضـائع التى تم انتاجها قبل نقلها الى المخازن ، أراد أن يعتذر لتعبه لكن الملاحظ أصر :

— بل لابد من حضورك يا أستاذ محفوظ ... فالانتـاج لا يمكن بقاؤه فى العنبر والا تسبب ذلك فى تأخير الانتـاج التالى ، أيضا من غير المعقول نقله للمخـازن دون معاينتك ... حيث زميلك الأستاذ محسن فى اجازة ... انها مسئولية ..

ويذهب ... بعد أن يضع قطعة من المناديل الورقية فى الحذاء ... بين قدمه والمسمار ، أراحتـه تلك الورقـة بعض الشىء ... حتى أوشكت المعاينة أن تتم .. واذا بالمسمار ينجح فى اختراق المنديل الورقى بعد مقاومة باسلة منه ، ليعود يخز قدمه من جديد ، أسرع يتم المعاينة ويغادر العنبر ، الله وحده يعلم كيف كان يسير ... وكأنه يخطو فوق الأشواك ! ..

قبل أن يصل الى مكتبه بخطوات قابلته « الهام » خطيبته الموظفة معه فى نفس الشركة ... تمت خطبته لها منذ أقل من شهرين ... بعد قصة حب رقيقة ، كان يغبط نفسه عليها ... اعتبرها هدية السماء اليه ... أو شعاع أمل بزغ فى أفق حياته فأضاء كافة جوانبها ، كم قال لها وهو ينظر فى عينيها كأنهما محطتان يلتقط فيهما أنفاسه « لو أستطيع أن أوقف الزمن وأنا معك !! » كيف تأتى أن يتطاير شرر الغضب من نفس هاتين العينين ؟ ! بادرته بمجرد أن لمحته :

ـ حاولت الاتصال بك عشرين مرة ، طبعا أنت لا تجلس فى مكتبك ... لذلك كان لابد أن تتصل أنت بى حسب وعدك ... كى نتفق على موعد معاينتنا للشقة بعد انتهاء العمل ..

رد بخفوت :

ـ لا أظننى سأستطيع ذلك اليوم ... اننى متعب قليلا ..

صاحت بغضب :

ـ قليلا أو كثيرا ... كان يجب أن تحدثنى لتخبرنى بظروفك على أى الأحوال .. لا أن تتركنى انتظر أكثر من ساعتين ثم اقتفى أثرك من مكان الى مكان ! ..

استاء من لهجتها :

ـ لماذا تصرخين هكذا ؟ أما كنت تستطيعين أن تعتبى فى عبارات أكثر لياقة ؟ ..

ـ أعتقد أنك يجب أن تكون آخر من يتحدث عن اللياقة !

كان واضحا انها فى شدة الألم .. أما محفوظ فكان حاله أسوأ ! ، راحا يتبادلان العبارات القاسية حتى أنهاها هو :

ـ كان المفروض أن اعتذر عن موعدى ... لكنى نسيت ... فهل قامت القيامة ؟ !

ـ أكثر ... حيث الانسان بالطبع لا ينسى سوى الأشياء عديمة الأهمية ... وهذا قد يعنى أشياء وأشياء ! ..

ازداد به الغضب ، وأيضا كانت حلقة النار تضيق أكثر وأكثر حول اصبع قدمه كل دقيقة ... فاستدار عائدا الى مكتبه ... قال قبل أن يعطيها ظهره :

ـ فسرى الأمر كما تشائين ... هذا شىء لا يطاق .

تجمدت لثوان ... كأنما كسر تصرفه شيئا فى أعماقها ... كان قبل لحظات ينبض بالفرحة ... من ثم فضلت أن تطوى

حبها فى قبضـــة كبريائها فأسرعت تعدو وراءه ، خلعت الدبلة الذهبية من أصبعها وقذفتها اليه !!

فى مكتبه وقف ذاهلا ... ماذا دهى الناس اليوم ؟ ، الكل حتى أقربهم منه يسيئون اليه ، دار ببصره فى الحجرة ... بدت كل الأشياء أمامه وكأنها تحولت الى كائنات متوحشـــة تريد افتراســـه ! ، جلس وهو يتنهد بمرارة ! ..

عاد يخلع الحذاء ... ليتحسس المسمار ... والألم يغطى كل تقاطيع وجهه ، استطاع ان يلمسه بأصبعه .. كان الجزء البارز منه ... بالغ الضآلة !!

جزء من قلبى هنـاك

ـ لا .. لا .. يا بابا .. لتظل مستريحا أرجوك .. أعرف طريق الباب وحدى .. تصبح على خير ..

ـ حسنا يا اقبال .. وأنت يا خالد .. تصحبكما السلامة ، لا تتأخرا على فى الزيارة هكذا ..

أعاد تمديد ساقيه على الفراش .. بعد أن كان قد هم بالقيام لتوصيل ابنته وزوجها حتى باب الخروج ، كما يفعل فى أغلب الأحيان ، فجـأة تذكر أنه قد نسى أخبارها بعودة عمتها من الحج ، وتناهت الى أذنيه أصـوات عند بسـطة البـاب الخارجية ، اذن اقبال لم تنزل بعد .. وبوسعه اللحاق بها ،

لكنه قرب الباب تسمرت قدماه لدى سماعه صـوت خالد يشكو لابنته الصغرى أحلام :

ـ لولا معزة عمو مختـار عندى لانسحبت عندما احتد على ، انها أول مرة يعاملنى هكذا .. وما يؤلمنى أننى لم أخطىء عندما قلت ...

قاطعته أحلام : لا عليك يا خالد .. بابا مضى عليه الآن عدة أيام وهو عصبى جدا .. ولا أدرى لمـاذا ، ربما لآلام ساقه ، لذلك يجب علينـا جميعا احتماله .. رغم أن التعـامل معه هذه الأيام أصبح أمرا بالغ الصعوبة ! ..

انسحب عائدا الى فراشه فى هدوء ، لم يرد اشعارهم أنه قد سمع حديثهم ، أحس بشىء من المرارة .. ليس بسبب قول أحلام ان التعامل معه أصبح بالغ الصعوبة ، ولكن لقولها انه منذ أيـام عصبى ولا أدرى لمـاذا ، « هـكذا يا أحـلام ؟ لا تدرين لمـاذا أنا عصبى وقلق ومتوتر ؟ لكأن تأخر شقيقك سمير فى الاتصـال بنا لا يقلقك على الاطـلاق ؟ عموما هـذا أفضل » .. عاد يحدث نفسه .. قلقه يجعله غير قادر على التفكير أو التركيز .. وهو أمر لا يناسب أحلام هذه الأيام .. حيث لم يتبق على امتحانها أكثر من أسابيع معدودة . وكلية الطب صعبة ، لكن من قال ان قلوب الأبناء مثل قلوب الآباء ، لو كان

الأمر كذلك لما تأخر عليه سمير فى الاتصال .. لينشب القلق مخالبه فى قلبه ، ترى ألا يعرف الام تصل حالته عند تأخره ؟ أحقا لا يعرف ؟ وهو كم قال له فى خطاباته اليه :

ـ عندما تنقطع رسائلك أكاد أجن .

ويرد محتجا :

ـ وهل أنا طفل صغير .. سوف أتوه أو أقع فى بعض المشاكل ؟ اننى الآن رجل .. رجل يحسن التصرف .

ومن قال له انه يخشى عليه المشاكل ؟ يثق جدا فى قدرته تجاه أية مشكلة .. لكن ما يخشاه هو أن يحدث له .. لكنه لا يستطيع أن يفسر له .. ليس فقط لأنها كلمة ليس من اللائق أن تقال حتى لشيخ هرم .. فكيف بشاب مازال فى بداية الحياة وطريق الأمل .. لكن أيضا لأن قلبه لا يطاوعه على كتابتها ، لكنه بعد عدة خطابات فى جدل وأخذ ورد قالها .. بطريقة مخففة :

ـ اذا كنت حقا مشغولا لدرجة لا تجد معها وقتا للكتابة .. فلتضع ورقة بيضاء فى ظرف خطاب وأرسلها الى .. فقط لاطمئن انك موجود ! .

واذا به يرد ساخرا :

ـ لا تخف يا بابا .. لن أموت ، ألم تسمعهم يقولون ان عمر الشقى بقى ؟ ! ..

كانت مشكلة الوقت هى العذر الثانى .. قبلها قال انه بسبب بعده طويلا عن الأوراق والأقلام أصبح يعانى عند كتابة خطاب اليه .. فلا يحسن التعبير ! ..

ومن قلبه رد عليه :

ـ اكتب أى كلام .. وسأجده أنا أبلغ من نجيب محفوظ وأشعر من شوقى ! ..

بعدها تأخر عدة شهور .. ثم ساق العذر الثالث ، الكتابة فى ذاتها أمر مزعج ، أيضـا البحث عن ورق وظرف وطابع بريد وصندوق بوسته ! الخ الخ .. « آه يا بابا لو عندك تليفون .. كنت حدثتك كل أسبوع ، ترى ماذا تم فى الطلب الذى كنت قد قدمته منذ أكثر من عشر سنوات ؟ » ..

وبدوره يحمل الاستفسار الى السنترال .. الذى ضاق موظفوه بكثرة ترديده هذا السؤال :

ـ يا سيدى .. يا أستاذ .. يا حـاج .. استرح أنت وعندما يحل عليك الدور سوف نرسل اليك ..

حتى أعلنت المصلحة عن تليفون الألف جنيه .. وذهب ..

فى أول يوم ، ليفاجأ بالطوابير .. وأصابه الهلع .. هل يمكن أن ينتهى العدد المحدد .. ويقفل الباب قبل أن يصيبه الدور ؟ ليتهم يرتبون الأولوية بقدر الاحتياج .. وليس بالتبكير فى الحضور ، متأكد أنه فى هـذه الحالة سيكون الأول .. فمن من كل هؤلاء .. يمكن أن يصـل به اليأس أو المرض الى شفا الهلاك .. ثم تعيد اليه الروح .. مكالمة تليفونية ؟ ! ..

المهم وصل التليفون الى منزله بالسـلامة ، فى البداية تحمس سمير وراح يحدثه كل أسبوع .. ثم بدأت الفترات تتباعد .. وتتباعد ، وعاد القلق والعتاب والاعتذار .. حتى استقرت الأمور عند اتفاقية ، يحدثه مرة كل شهر .. مثل الهلال الوليد ، وان كان هـلاله هو لا يبزغ من بين السحاب .. وانما من .. التليفون ، والتزم الابن فعـلا بهذا الاتفاق .. ما يزيد على العام ، كان الأب يعيش طوال الشهر ينتظر .. وهو يعد الأيام .. حتى يأتى اليوم الموعود ويسمع صوته ..

الى أن كان الأحد الأول من الشهر السابق ، طوال بعد الظهر وهو يجلس قريبا من التليفون ، حتى منتصف الليل ، ظل يتعلق بأهداب الأمل .. لكن المكالمـة لم تتم ، وبين لحظة وأخرى يختبر التليفون ، أخيرا دخل فراشـه .. بيد أنه لم ينم .. رغم محاولاته المتعددة لطمأنة نفسه ، طبعا هنـاك ظروف كثيرة

يمكن أن تعوقه عن طلب المكالمة .. عمل اضافى .. أمطار غزيرة عنده .. عطل بالخطوط .. نزلة برد خفيفة .. القيام برحلة سريعة الى مكان لا يوجد به تليفون .. الخ الخ ، فى الواحدة خرجت أحلام من غرفتها الى دورة المياه .. بعد انتهاء مذاكرتها ، سألته عن مكالمة سمير .. فهز رأسه نفيا ، نظرت فى ساعتها :

ـ لا أعتقد أنه يمكن أن يتكلم بعد الآن ..

ـ طبعا ..

ـ اذن لماذا أنت مستيقظ ؟ ..

ـ أحس بألم شديد فى ركبتى ..

ـ سلامتك يا بابا ، لكن .. ما سبب هذا الألم ؟ .. هل وقعت عليها ؟

ـ حقا لا أدرى السبب ، فأنا لم أقع عليها قط ، عموما لقد تناولت قرصين من الأسبرين من ربع ساعة ، وأعتقد أنهما سيزيلان الألم وبالتالى سوف أنام ..

لكنه لم ينم الا بعد الفجر بأكثر من ساعة .. ليستيقظ قرب الظهر على الألم يدق باب احساسه بشدة ، حتى لم يستطع أن يغادر فراشه ليعد افطاره .. كما اعتاد ، حسنا .. لا داعى

للافطار ، يكفيه فقط كوب من الشاى .. نادى على أحلام .. لكنها كانت قد خرجت الى كليتها .. « بناقص الشاى أيضا » ، رن جرس الباب .. زمجر :

ـ لم أقم لطعامى .. فهل أفعل الآن لأجد أن الطارق هو الزبال أو بائع لسلك الألومنيوم ؟ ..

لكن الجرس يعاود الرنين ثانيـا وثالثا .. فيتحامل على نفسه ، عندما يفتح الباب يشهق فرحا واعطافه تهتز طربا :

ـ نعمت ؟ حمدا لله ان قمت لأفتح ..

نعمت .. الوحيـدة التى يرتـاح اليهـا وينطق لسانه أمامها .. ابنة عم زوجته الراحلة ، أى بمثابة الخالة لأولاده ، تأتى من حين الى حين لتطمئن على أحلام ، هتف فيها بعتاب :

ـ أتغيبين عنا كل هـذه الأيـام ؟ ألا نخطـر على بالك أبدا ؟ ! .. ألا تعلمين اننا .. ان أحلام تحتاج اليك .. جدا ؟

نعمت تقطع ضحكتها المرحـة لتتساءل بانزعاج عما ألم بساقه ، ثم تصحبه بكل حنان الى سريره .. تسأله :

ـ هل تغديت ؟

ـ ولا أفطرت ! .

تسرع الى المطبخ .. لتخرج دجاجة من الثلاجة .. وتضعها على البوتاجاز ، تستأذنه :

ـ حتى تنضج الفرخة سأذهب الى منزلى .. فى دقائق.. لأحضر لك مرهما من أجل ساقك ، انه مرهم ممتاز .. أرسلته لى ابنتى سهير من أمريكا ..

عند ذكر اسم سهير تمر بعينى نعست سحابة من الأسى .. وحيدتها ، كرست كل حياتها لها بعد وفاة والدها ، اعترضت على أفضل عريس تقدم اليها لأنه ضابط شرطة .. يمكن أن ينقل الى محافظة أخرى ، ثم قبلت وجيه .. المعيد بالجامعة .. أهم مميزاته كانت أن لديه شقة تمليك فى نفس حيهم .. العباسية ، لكن القدر كان يسخر من كل ترتيباتها تلك ، بعد عامين فقط جاءته البعثة الى أمريكا .. ليدرس الدكتوراه ، فأخذ زوجته وطفلته وسافر .. على ما يبدو أعجبه الحـال هناك .. حيث لم يعد حتى بعد حصوله على درجته ، نعم .. وحيدة مثله ، فلماذا اذن لا تأتى اليهم كثيرا .. كل يوم حتى ؟ لا يستطيع هو الذهاب .. بأية حجة ؟

دخلت تحمل له صحن الشوربة .. يتصـاعد منه البخار الشهى .. هتف :

ـ خسارة .. لا يوجد بالمنزل ليمون ..

ضحكت : أعرف جيدا أنك لا تشرب الشـــوربة بدون ليمون .. لذلك أحضرت معى بعضا منه ! ..

دهش ، هل ما زالت تذكر هـــذا الأمر عنه .. رغم مرور أعوام على قوله ذلك أمامها ؟ ! شرب الطبق بأكمله .. ألذ شوربة ذاقها فى حياته ، بعد الغداء دهن ركبته بالمرهم .. ممتاز فعـــلا .. كأنه السحر ، زالت آلامه فورا .. أم هى لمسات يديها ؟ كم ود ــ وهى تصافحـــه قبل انصرافهـــا .. لو أسند رأسه الى صدرها .. وبكى عليه ! ..

وجاء الأحد الثانى من الشهر ، ليس موعد سمير .. لكن أليس محتملا أن يحدثه طالمـــا عاقته الظروف عن الحديث فى الموعد الأصلى ، بيد أن الليل ينتصف والتليفون مضرب عن أى رنين !

فجأة .. بدأ يحس بآلام ركبته تعاوده ثانية .. وبصورة أشد ، حتى كاد يدمى شفتيه بأسنانه ، كيف فاته أن يذهب الى الطبيب عندما أحس بالألم أول مرة ؟ فى سنه هـــذه لابد من الاهتمام بأى عارض قد يكون نذيرا ، لم يتحدث سمير أيضا لا فى الأحد الثالث ولا الرابع ، ليس قلقا جدا ، أغلب الظن أنه لا يريد أن يحدثه فى غير الموعد المضروب بينهما .. خشية عدم تواجده بالمنزل ، لذلك فهو يفضـــل الانتظار للأحد الأول

من الشهر التالى ، طبعا هذا الافتراض مردود عليه بأنه يستطيع التحدث فى وقت متأخر .. بعد منتصف الليل مثلا .. من ثم يكون متأكدا من وجوده .. انه طبعـا لا يتردد على الملاهى الليلية أو صالات الديسكو ! لكنه فضـل أن يموه على نفسه حتى لا يقع فريسة فى قبضة الوساوس ! وان ظل الشيطان يهمس له بالمخاوف بين الحين والحين ! ..

يسير بالشارع فى رياضته اليومية .. فيكاد كل ثانيـة يصطدم بشخص آخر من شدة الزحام ، يخبط كفا بكف :

ـ كل هذه الآلاف والملايين وسعتها أرضك يا بلدى .. وضقت فقط عن أن تسعى ابنى سمير ؟ ! ..

أيضا عند تردده على أية مصلحـة حـكومية أو شركة أو مصنع أو بنك ، ويجد عشرات ومئات الآلاف يعملون .. يردد نفس المقولة :

ـ استطاع سوق العمل أن يستوعب كل هؤلاء ، وضاق فقط .. أو أقفلت كافة أبوابه ـ بل ونوافذه ـ عندما جاء الدور على سمير ليطلب العمل مما اضطره للسفر ؟ ..

أحيانا لا يكتفى أن يقول هذا لنفسه .. فيفضفض به الى صديق أو قريب .. وطبعا لابد أن يحـاول ذلك الصـديق

أو القريب .. أن يبحث بين الكلمات عن حروف العزاء فيقول له مواسيا :

ـ ما هذا الذى تقول يا أستاذ مختـــار ؟ ألا تعلم أن الملايين من أبناء البلد قد انتشروا فى بعض الدول العربيـــة .. وأيضا فى دول أوربية ؟ انها ظاهرة صحية .. أن يغزو الانسان المصرى أطراف المعمورة باحثا عن رزقه ، ولا يتقوقع داخل جـــلده ! ..

رد بأسى : لكن فرص العمل لم تنفد نهائيا من مصر .. حتى نبحث عنها بالخـــارج ، هل انتهينـــا من تعمير الصحراء التى ....

يقاطعه : يا رجل كن معقولا .. ليس كل انسان مهيئا لهذا الأمر ، وتعمير الصحراء يحتـــاج لشركات وتجمعات وأموال وامكانات ليست فى متناول الجميع ..

ـ أعرف كل ذلك طبعا لكن ..

يتنهد ثم يردف : الفراق صعب ..

ـ لا ننجب أولادنا كى نربطهم بجوارنا ، عندما يكبر الابن يصبح شخصية مستقلة .. من حقه أن يختار الطريق الذى يجده أفضل .. بالنسبة له ..

كل ما يقال له بدهيات .. لكن دائما للقلب منطق هيهات للعقل أن يفهمه .. أيضا هيهات للقلب أن يقتنع بحجج العقل ، انه مثلا لا يستطيع منع قلبه من القلق بشدة .. كلما قرأ عن ضحايا أو مصـابين بسبب عواصف أو زلازل .. أو حتى اضطرابات فى ايطاليا .. وكأن هذه الدولة بملايينها الخمسين .. لم تعد تحوى سـوى شخص واحد .. ابنه ، لكن .. ما شأنه هو والملايين الخمسين ؟ .. انه لا يفكر الا فى سمير ، بلغ به الأمر أن أخبار ايطاليا الأمنية والجوية .. وحتى الاقتصادية .. أصبحت داخل دائرة اهتمامه .. أو ربما بؤرة هـذا الاهتمام، « ما الغريب وجزء من قلبى هناك ؟ » .

ومثال آخر ، مرت عليه أيام عصيبة وهو يقرأ عن انحراف، كثير من الشباب .. وتفشى الادمان للهروين والأقراص وغيرها بينهم ، ليخرج علمـاء النفس والاجتماع كى يبرروا ذلك بغياب الأب ـ وبالتالى الحزم والحماية والأمن والرقابة ـ فى أسر كثيرة لعملهم فى الخـارج ، ركبه الهم ، اذا كان الشاب ينحرف لمجرد غياب والده فقط .. رغم تواجد الأم والاخوة والأعمام والأخوال .. والمجتمع بأسره ، فكيف بشاب خرج للانفتـاح على العالم الغربى ـ البعيد كل البعد عن قيمنا وتعاليم ديننا ـ دونما أية رقابة على الاطلاق ؟ بعد فترة استطاع أن يقنع نفسه أن انحراف الشباب لغياب الرقابة .. يكون فى سن المراهقة

أو بعدها بقليل ، أما سمير فكان عند سفره رجلا .. رشيدا عاقلا .. رباه على الأخلاق والدين والقيم .. التى بالقطع سوف تصونه من كل ضلالة أو تضليل ..

لم تبدأ هذه الأفكار تغزو تفكيره بتلك الشراسة الا بعد وفاة زوجته .. رفيقة حياته الغالية ، شاركته المرة قبل الحلوة .. كانت البلسم والحنان .. حتى أصبحت عيناها بالنسبة له .. محطتين يلتقط فيهما أنفاسه ، حديثها معه طوال ساعات فراغهما كان يشغل وقته عن التفكير فى هذه المتاعب ، بل كانت ــ حتى اذا خطرت له أحيانا ــ تخفف عنه وتحاول ادخال الطمأنينة الى قلبه .. رغم أنها ربما تكون .. هى نفسها .. أشد منه قلقا وأحوج لهذا التخفيف والطمأنينة ، الآن بعد رحيلها تفرغ تماما للمتاعب والتفكير فيها .. ليزداد عتابه على القدر الذى حرمه منها أيضا ، وان ظلت دائما فى خياله .. صورتها محفورة وشما على جبين الذاكرة .

خفف من أحزانه بعض الشىء .. أن ضميره من ناحيتها كان مستريحا ، بقدر ما رعته وأسعدته .. كان هو لها أيضا نعم الشريك ، ماتت راضية عنه .. لم تنس أبدا .. طوال حياتها معه .. تلك الفترة البعيدة فى بداية زواجهما .. عندما مرت سنوات خمس دون أن تنجب ، بدأت والدته وشقيقاته

والأسرة كلها تلح عليه أن يتزوج من أخرى ، فهو رجل العائلة الوحيد .. وينبغى أن تكون له الذرية حتى لا ينقرض اسم الأسرة ، لكنه وقف أمام الجميع بصلابة :

ـ لا أضمن أن أجد شريكة أخرى تريحنى وتفهمنى مثل فتحية ، ومن قال لكم اننى سأموت اذا لم يكن لى أولاد ؟ الانسان لا يرجو شيئا أكثر من أن يجد فى هـذا العالم كله .. شخصا واحدا قلبه عليه ، فهل اذا وجدت هـذا القلب أفرط فيه ؟ مستحيل .. ثم لمـاذا نيأس من رحمة الله .. انه قد خلق الطب والدواء وسنحاول .

قدرت له المرحومة هذا الموقف فأعزته ووضعته داخـل رموشها ، حتى كرست حياتها لراحته ، أصبحت حياتهما ترنيمة ظنها أبدية .. ستظل حتى نهاية الحياة ، لكن الترنيمة فجـأة صمتت .. تركته فتحية .. بل تركت الدنيا بأجمعها .. لتغدو بعدها بلا طعم ، بعد رحيلها فقدت الحياة ثوبهـا الزاهى .. بحرهـا أصبح بلا مـاء .. زهورهـا أضحت بلا لون .. بلا رائحة ..

لذلك تمنى دائما لو كان سمير ما زال يعيش معه .. انه رجل مثله ويمكن أن تقوم بينهما صداقة ، البنتان لهما ـ طبعا ـ حياتهما الخاصـة .. مع ذلك حاول أن يشغل نفسه ببعض

أمورهما .. ووجد فى هـذا الانشغال بعض العزاء ، حتى انه كان يحمد الله وهو يضحك فى سريرته .. على ثورة أسرته ، حيث هى التى دفعته لعرض زوجته على الأطباء ، وان مرت به فى أحوال نادرة .. ظروف كانت تجعله يندم على رحلة العلاج هذه ، زاعقـا بسخط « ليتنى لم أفعلها ! » ، طبعـا للأولاد مشاكلهم .. وهو يتحملها .. لكنها عندما تتكأكأ كلها معا يصبح معذورا فى هـذا التفكير .. مثلما حدث منذ عام .. حين رسبت أحلام فى كليتها .. وبعدها بيومين قام خلاف بسيط بين اقبال وخطيبها ـ فى ذلك الوقت ـ فاذا بها تلقى اليه الدبلة .. ليصرخ الأستاذ مختار :

ـ لا الغائب يريح قلبى بأن يطمئنى عليه..ولا الحاضرتان فعلتا بحسن تصرفهما فى كافة الأمور ! .

بعد لحظات يعود لطبيعته .. حامدا الله على النعمـة التى وهبه اياها .. متضرعا أن يبقيها له ، عاد يفكر عاتبا فى قول أحـلام عنه .. عصبى جـدا ولا أدرى لمـاذا ، « لا تدرين لمـاذا ؟ ، ألم تحضرى معى الخميس المـاضى حفـل زفـاف دينا ؟ » ، دينا الجميلة الرقيقة .. ابنة صديق عمره توفيق .. لذلك أحبها كابنته .. وفاتح سمير فى أمر زواجه منها .. فكان رده الغريب :

ـ لا حديث فى هـذا الأمر حتى انتهى من دراستى !

ـ طبعا .. لكنى أسألك عن رأيك فى دينا نفسها ، هل ترغب فى الارتباط بها ؟ .

هز سمير كتفيه : ولم لا ؟

رد غريب آخر . انه لا يرفض .. لكن أيضا لا يتحمس ! فسر سمير :

ـ لا أتحمس لأننى كنت أود أن أتزوج بعد قصة حب ، لكنى كذلك لا أرفض لأننى لم أصادف حتى الآن هذا الحب ، واذن فدينا التى نعرف أسرتها وأخلاقها .. تصبح عروسا مناسبة ! .

طار الأستاذ مختار فرحا .. فالأمور ميسرة فى الحياة .. عكسها فى الأفلام .. الأب يريد بنت الأسرة الطيبة ، والابن يحب أخرى لا أحد يعرف عنها شيئا ، أو ربما ـ فى بعض الميلودرامات ـ تكون خادمة أو أرتست ، لذلك لم يكذب خبرا وحدث صديقه توفيق .. الذى فرح بدوره .. لا يتمنى لابنته أفضل من ابن صديقه مختار ، وحصل سمير على الدبلوم .. من ثم حدثه والده فى أمر الخطبة .. لكنه يصر ألا يحدث ذلك الا بعد أن يعمل :

ـ هذا أكرم لدينا ووالدها .. طبعا أسرته ستسأله .. ماذا يشتغل العريس ؟ .. فهل يقول انه يشتغل بالدق على أبواب العمل .. لكن هـذه الأبواب أصبحت صماء .. لا تسمع دقه وبالتالى لا تفتح له ؟ ! .

تكرر طلب الأب عندما قرر سمير السفر .. حتى يطمئن توفيق لجديته ، وذهل الابن :

ـ معقول ؟ ! هـذا مستحيل طبعـا ، من يرتبط قبل سفره هو الذى لديه اعـارة أو عقد عمـل .. أنا مسـافر الى المجهول ، أليس محتملا الا أوفق فى عامى الأول فأمد غيـابى عاما آخر ؟ أو لا أوفق على الاطلاق فأعود لأبدأ هنا من الصفر ؟ أليس محتملا أن .. أن أقع فى حب طليانية فاتنة ؟

صاح الأب :

ـ .. هذا بالتحديد ما أخشاه ، لذلك أردت اتمام الخطبة قبل سفرك ..

قال سمير وهو يضحك بسخرية مريرة :

ـ لا عليك يا أبى .. كنت أمزح معك .. اطمئن .. عندما يكون الشاب مهموما بمستقبله .. فان هـذا الاهتمام

أو الهم .. يصبح أقوى مضاد حيوى .. ضد فيروس الحب ! ..

ـ واذا تقدم لدينا عريس ؟

ـ أى عريس ؟ انها ما زالت طفلة ، وأنا لن أغيب سوى عام واحد .. باذن الله .

العام جر وراءه عاما آخر ، والأستاذ مختار يصبر توفيق ، لكن فى بداية العام الثالث تقدم لدينا بالفعل عريس ممتاز ، وجاء والدها يطلب من صديقه أن يحسم الموقف .. ان كان يريدها لسمير ، لكن أين هو سمير ؟ .. لم يعد يطوله .. كمثل بالونة أفلت طرفها من بين أصابع من يمسك بها ، كل ما استطاعه أن يكتب له .. مقترحا أن يعلن الخطبة ويقدم الشبكة نيابة عنه .. حتى يعود ، لكن سمير يرد ببرقية مزينة بالورود « تهنئتى الحارة لدينا على خطبتها الموفقة ! » منذ أيام كان حفل زفافها .. طيلة الحفل والأستاذ مختار يشعر بغصة فى حلقه .. والألم والحسرة تملأ قلبه ، أكثر من مرة أغمض عينيه وتخيل أن سمير هو الجالس بالكوشة ! .

فى الصباح التالى أحس أن همومه أكبر من أن يتحملها ، فكر فى الذهاب الى النادى عله .. وسط الناس .. يتخفف منها ، لكنه وجدها قد سبقته الى هناك لتحتل أماكنها حول

مائدته ، فجأة رأى نعمت قادمة تجاهه .. لدى مرآه اياها راح قلبه يخفق بشدة حتى انه نهر نفسه .. « ما هذا يا مختار ؟ .. هل عدت مراهقا من جديد ؟ » بعد أن صافحها رفض أن يفلت يدها من يده .. وكأنه يخشى أن تطير منه .. همس فى توسل :

ـ اتفضـــلى .

ولم تمـــانع .. جلســـت حيث أشار ، لتبدأ همومه فى الانسحاب واحدا اثر الآخر ، بعد فترة التفت حوله بدهشة .. كانت الشمس قد غربت ، اذا فقد استمرت الجلسة بينهما ثلاث ساعات كاملة .. مرت كدقـــائق ! نسى فيهـــا عروس ســـمير الضائعة .. بل وحتى تأخره فى الاتصال و .. كل شىء .. كل شىء ، همس فى دخيلته آسفا على انتهاء جلستها « آه لو أستطيع أن أوقف الزمن وأنا معك » .

طوال اليوم التالى كانت فكرة واحدة تدق رأســـه .. فكرة مجنونة ، لكنه استطاع أن يستأنسها لكثرة ما قلبها ، وجد نفسه مشدودا للاتصال بها .. ماذا يريد منها ؟ لا شىء .. المهم أن يلقاها وكفى ! بادرها :

ـ هل ضايقتك جلستنا معا أمس ؟

ردت بهمس رقيق :

ـ على العكس .. أسعدتنى ..

ـ اذن ماذا يمنع أن نكررها .. كل بضعة أيام ؟

شهقت :

ـ مستحيل ..

ـ اذن أنت لا ترحبين بلقائى ؟

أسرعت ترد بلهفة :

ـ لا تفهمنى غلط .. أرجوك ، لو أننى لم أكن مرحبة أمس لانسحبت بعد فترة ، لكنى أخشى انتقاد الناس ، طبعا لا يستطيع أحد أن يستنكر جلستنا أمس لأنها كانت مصادفة .

ـ ومن الذى سيعرف فى المرات التالية .. انها أصبحت مرتبة ؟

ـ تعددها .. الصدفة لا تتكرر هكذا كثيرا ..

بعد أن وضع السماعة .. مضى يشرح كلماتها .. بل والنقاط التى فوق وتحت الكلمات ، انتهى الى نتيجة جعلت قلبه يكاد يرقص طربا ، اهتمامها بتوضيح موقفها والتأكيد عليه .. له معان ومعان ، لكنها فعلا على حق ، فان اجتماعهما هذا .. الذى لاشك سيحقق لهما الكثير من الائتناس والسعادة .. بل والارواء .. لن يعجب المجتمع اطلاقا ، لماذا .. رغم أنهما لا يرتكبان أى خطأ أو يجورا على حق

أحد ؟ ورغم أنه يقبل مثل ذلك اللقاء بين فتيان وفتيات فى بداية سن الشباب ؟ فى مثل عمريهما لا يكون الأمر مستساغا الا فى اطار واحد .. الزواج .. هتف :

ـ أتزوج ؟ ! يا ريت ! والا .. فهل أنا سعيد بوحدتى .. التى أكاد أتجمد فى صقيعها ؟ بالصمت الهائل من حولى ؟ بفراشى البارد ؟ وآه ثم آه من برودة الفراش .

واضح أن نعمت نفسها مرحبة ، واثق أنه ليس واهما .. رأى ذلك فى عينيها أثناء جلوسهما بالنادى ، ثم أكدته بردها على مكالمته ، فما الذى يمنع اذن ؟ انه مازال فى كامل صحته ولياقته .. حالته المـالية مستورة .. حبه لزوجتـه الراحلة وامتنانه لرعايتها اياه .. لا يتعارض أبدا مع ارتباط جديد ، فهو لم يبعها أو يتخلى عنها طواعية ، ابنتيه ؟ .. اقبال تزوجت وأحـلام على وشك ، من ثم زواجه لن يضايقهمـا .. على العكس .. ربما أراحهما من احساس الشعور بالذنب لانصرافهما كل الى حياتها .. بعيدا عنه ، لم يبق الا سمير ، آه .. هذا ما يخشاه ، قطعا لو عاد ابنه الوحيد .. ووجد أخرى تحتل مكان أمه .. لكانت صدمته مروعة ، طبعا المغريات لبقائه فى الخارج كثيرة ، ربما ارتباطه بحياته مع والده .. هو الشىء الوحيد الذى سيدفعه للعودة الى الوطن ، وقد يرى أنه بعد زواج والده .. لن يكون مرتاحا فى اقامته بالمنزل .. بل لن

يكون حرا فى حركته به ، من ثم يقرر عدم العودة .. شـهق « لا .. محال ، لن أعود لفكرة الزواج هذه اطلاقا .. ولن أخذلك يا سمير .. أبدا » ! .

ثم كان الأمس هو الأحد الأول من الشهر الثانى .. جاء بعد انتظار طويل مرير ، هـذه المرة لابد أن يتكلم ، من بعد صلاة المغرب .. رابط الأستاذ مختار بجوار التليفون .. فى انتظار الرنين الطويل ، لكن الليل ينتصف دون أن تأتى المكالمة الموعودة .. ليبدأ القلق ينساب داخله كجسـد ثعبان أملس .. غير معقول أن يهمل ذلك الأمر الهام مرتين متتاليتين ، فهل حدث له مكروه ؟ استر يا رب ! ..

فى الفجر حاول القيام ليصلى .. لكن ساقه عصته .. لم يستطع أن يحركها ، بعد ساعتين فى محاولات استطاع أن ينزل من السرير ، لكنـه ما كاد يبدأ السير حتى أحس بآلام رهيبة فى ركبته ، كأن داخلها كلب مسعور .. ينبح ! عندما علمت اقبال بمرض والدها .. جاءت مع زوجها لتعوده ، لكن ها هو خالد يخرج عاتبا ، معذور ألا يعلم أى هواجس تمور داخله .. اذا كانت ابنته .. شقيقة سمير نفسها .. لا تستطيع أن تقدر هذه الهواجس ، آلمـه ذلك .. وكأنما كان القلق داخله فى حاجة الى مثل هـذا الألم كى يتفجر .. فى صورة

دموع .. راحت تسيل على خديه ، عادت أحلام بعد توصيل شقيقتها .. شهقت :

ـ بابا .. أتبكى ؟ ! ماذا حدث ؟ ..

لم يرد ، دق جـرس التليفـون .. لا يهتم ، ليس رنين الترنك ، هتفت أحلام :

ـ بتقول حضرتك من طرف سمير ؟

فى لحظة كان الأستاذ مختار يقفز من سريره .. بلياقة غير متوقعـة .. ليس فقط بالنسبة لآلام سـاقه .. ولكن حتى بالنسبة لسنه ، خطف السماعة من يد أحلام ، وتحدث الصوت على الطرف الآخر :

ـ أنا نبيل .. صديق سمير وزميله فى العمل ، أحب أعرفك أنه بخير وصحة وسلامة ..

ـ لكنه لم يحدثنى من شهرين !

ـ فى الشهر المـاضى سافرنا أنا وهو الى المغرب .. فى عمل ، ومن هناك حاول أن يحدثكم يوم موعده معكم .. وبعدها أيضا .. أكثر من مرة ، لكنه رغم كل ما بذل من محـاولات لم يوفق ، بعد وصولنا ايطاليا من عشرة أيام .. علمنا أن موظفى التليفونات سـوف يقومون باضراب للمطالبة بزيادة أجورهم ،

لذلك خشى أن يمر موعد هـذا الشهر أيضا دون أن يستطيع محادثتكم .. من ثم أرسـل اليـكم خطـابا فى نفس يـوم عودتنا .. ترى هل وصل ؟

ـ أبدا .. لم يصلنا أى شىء !

ـ اذن فربما يصل غدا أو بعد غد ، المهم .. لقد وصلت القاهرة اليوم ، وقد أكد على سمير أن أحدثكم فور وصـولى كى أطمئنكم عليه ، ومعى بعض الهدايا منه سأحضرها غدا .

بعد هـذه المحادثة بدقـائق دق جرس البـاب .. كان البواب .. رفع صوته مهللا :

ـ معى جواب من الأستاذ سمير .. لن أسلمه قبل أن آخذ الحلاوة !

جلس الأستاذ مختـار على كرسيه الأثير والخطـاب فى يده .. مضى يتحسسه وكأنه يتلمس عليه آثـار لمسات أنامل سمير . فتحه . آه هـذا خط سمير الحبيب .. لم يكتب اليه من فترة طويلة .. مع ذلك يستطيع أن يميز خطه من بين ألف خط ، رفع الخطاب الى شفتيه وقبله .. قبله قبل أن يقرأه .. وكأنه أحس بشعور خفى انه لو قرأه أولا فلن يقبله .. كان الخطاب يحمل اليه خبرا مزعجا ! .

عندما انتهى من قراءة الخطـاب .. أحس كأن هموم الدنيا بأكملهـا قد جثمت فوق كتفيه ، رغم انه منذ دقـائق فقط كاد يرقص طربا حين سلمه البواب نفس هـذا الخطاب ، مقل سمير فى خطاباته .. لا يقدر كيف هى لهفة الأب على أخبار ابنه الغائب .. الوحيد ! ..

للناس جميعا عيدان .. عيد الفطر أو العيد الصغير ، وعيد الأضحى أو العيد الكبير ، للأستاذ مختار عيد ثالث .. يوم تلقيه خطابا من ابنه .. وهـذا عنده العيد الصغير .. يعيش الأسابيع على أمل وصـوله ، فى انتظار العيد الكبير .. يوم عودة الابن نفسه ! ..

لكنه بعد قراءة الخطاب خيل اليه انه قد قلب الدنيا رأسا على عقب ، قال الابن فيه انه سـوف يتزوج .. فتاة ايطالية .. أحبها وأحبته .. مخلصـة مطيعة .. لا يعتقد أن أى فتـاة مصرية يمكنها أن تتحمله مثلها ، و « فى هـذه الزيجة سعادتى ومصلحتى أيضا يا أبى .. فأرجوك أن تباركها » !! ..

هكذا يا سمير ؟ .. بقرار متسرع تقطع كل جذورك فى بلدك لتغرسها فى بلاد الغربة ؟ اذن كانت سرابا كل آمالك طوال السنوات المـاضية يا مختار .. والعيد الكبير لن يحل أبدا..!

فكر ان يكتب اليه محاولا اثناءه عن قراره ، لكنـه عاد

وتأكد من عبث هذه الفكرة ، من جهة فان الخطابات تتأخر .. ومن جهة أخرى فلا يعتقد أن بضعة سطور مخطوطة على وريقة صغيرة يمكن أن تغير فكر ابنه ، المواجهة اجدى ، ربما استطاع هو بنفسه أن يؤثر عليه ، سيضع كل منطقه ومشاعره فى كلماته.. سيظل يقولها ويعيدها طوال أيام اقامته لديه ، قد يمكنه بذلك منع وقوع المحظور الذى توجسه من أول لحظة خطرت فيها لابنه سمير فكرة السفر ، مع ذلك لم يكن فى استطاعته منعه ، الظروف كلها تجمعت ضده حتى لم تترك له سوى الانصياع!..

بعد تخرج سمير فى المعهد الفنى .. أحس ان طموحاته أكبر من أن تجعله يقنع بوظيفة حكومية ، من ثم اتجه الى العديد من الشركات والمصانع .. وللأستاذ مختار أصدقاء أعزاء من بين كبار العاملين بها ، اعتذر دائما عن الوساطة لديهم من أجل أبناء أى أقارب أو معارف .. انتظارا للخدمة الكبرى التى سوف يرجوها منهم .. ابنه الوحيد سمير ، لكنه يفاجأ بأمور غريبة فى البلد ، المصانع لا تكاد تعمل بنصف طاقاتها .. لذلك فان عددا من العاملين بها شبه متعطلين ، ولولا قوانين العمل لوفرت بعضا منهم .. أى استغنت عنهم .. فكيف بها تعين عاملين جددا ؟ .. غير معقول طبعا ! ..

ـ أمرى الى الله .. سأنتظر تعيينات القوى العاملة .

واذا بالجرائد تطلع عليهم بعد أيام .. كى تزف للناس

بشرى تعيين أصحـاب المؤهـلات الذين تخرجوا منذ سبعة أعوام مضت ! أى ان على سمير أن ينتظر بدوره مثل هذا الرقم من الأعوام اذا فكر فى تعيينات القوى العاملة .. أى احباط للمتخرجين الجدد ؟ منذ أعوام كان الشاب يفتقد وجود شقة ليكمل نصف حياته بالزواج ، حيث لو اعتمد على التوفير من راتبه ـ الصغير أصلا ـ لاحتاج الى عشرات الأعوام كى يجد ثمن الشقة أو خلوها ، اليوم يفتقد العمل .. أى حياته كلها ، بجوار أزمة فرص العمل أصبحت أزمة المساكن غير ذات أهمية كبرى ، يستطيـع الشـاب أن يتزوج مع أسرته أو مع أسرة عروسه .. أو حتى لا يتزوج بالمرة ، لكنه لن يحقق ارادته وذاته .. بل وسبب تواجده فى الحياة .. الا بالعمل .

عموما بقى الضلع الثالث من مثلث العمل فى أى مكان من العالم ، مشروعا خاصا به ، والحق .. كان هـذا أحب طريق لسمير وأقصى أمانيه ، ولو ورشـة صغيرة ، لولا عقبة ضئيلة جدا .. التمويل .. من أين ؟ الحقائق عنيدة .. مثل الصخور الصلدة ، والداه يقدمان اليه قلبين ممتلئين وأيدى خالية ! ..

أمام كل هذه التراكمات .. من حتميات العصر ومتطلبات الحياة .. بزغت فكرة السفر الى الخـارج ، عام أو عامان على الأكثر تكفى لمن له حماس سمير وجديته واخلاصه وقدراته

على الاستيعاب .. كى يجمع عشرة آلاف جنيه ، الحد الأدنى لأى مشروع يبدأ صغيرا ثم يكبر .

فعلا ..فى نهاية العام الأول له فى ايطاليا كان قد ادخر هذا المبلغ ، لكنه يعلم من بعض الشبان المصريين الذين لحقوا به للعمل هنـاك بحالة الجنون التى أصابت الأسعار .. أسعار الأراضى والخامات ومواد البناء والخلوات و .. كل شىء ، كل شىء .. ليصـل الحد الأدنى لمشروعه الى ما يزيـد على الثلاثين ألفا ! ..

هكذا دخل سمير فى سباق يشبه سباق الحمار وراكبـه الذى يحمل فى يده عصا طويلة .. علق فى آخرها حزمة برسيم.. وجعلها بحيث تتدلى أمام عينى الحمار .. لتثير شهيته فيجد فى السير ، لكنه أبدا لن يصل اليها مهما قطع من مسافات !

الشهور تتوالى لتكتمل أعوام أربعة على سـفر الابن الغالى .. هذا ما تقوله نتيجة الحائط ، أما الفترة فى احساس الأستاذ مختـار فتقترب من الأربعين عاما ، رأى فيها عمره يتسرب من بين أصابعه قطرة قطرة ! ..

الأحداث كلها أيضا أبت الا أن تشارك فى زيادة شعوره بالكآبة .. رحيل شريكة عمره التى ماتت وآخر كلمـة على لسانها « سمير » ، تمنت أن تراه فى أيام مرضها التى لم تكمل

أصابع اليد الواحدة .. لكنها حرمت من آخر أمنية لها ، أيضا خروجه الى المعاش وخواء أيامه من بعده .. عدا احساسه بأنه قد وصل فى رحلة العمر الى آخر الخط .. وما بقاؤه على قيد الحياة الا بمثابة اللعب فى الوقت الضائع ، وكأنه سجل انسانى طويل .. أوشك على اغلاق صفحته الأخيرة ! ثم ثالثة الأثافى .. اضطراره للابتعاد عن نعمت رغم تفاهمه معها .. وارتياحه الكبير لصحبتها .. بل وحاجته اليها ! ..

حتى الحدث السعيد الوحيد الذى وقع خلال هذه السنوات .. زواج ابنته الكبرى « اقبال » .. فقد قلب عليه المواجع ، أحس كم هو قاس أن تتزوج شقيقة فى غياب شقيقها الوحيد ، هذا عدا الفراغ الذى تركته بالمنزل ، كان نقاشها ومزاحها الدائم مع شقيقتها أحلام يملأ البيت ، بعد زواجها خيم عليه السكون ، مع أن ساكنيه ما زالا اثنين .. لكنهما طبعا من جيلين مختلفين .. لكل منهما أفكاره واهتماماته .. لذلك يبدوان وكأنهما شخصان لا يتكلمان لغة واحدة ! ..

ابتهال واحد ظل يؤنس وحدة الأستاذ مختار .. « آه يارب .. متى يعود سمير » ، يسير فى الطرقات وعيناه تتجولان فوق الوجوه .. كأنهما تبحثان عنه ، طال الغياب لكن الأمل ظل دائما موجودا ، فجأة وهو يقرأ ذلك الخطاب أحس أن الأمل راح يبعد ويبعد حتى لم يعد يبين ! ..

لا .. لابد أن يفعل شـيئا .. بدلا من أن يتشرنق فى الماضى ، هاتان الألفان من الجنيهات .. احتفظ بهما دائما فى حرز لا يمس ، من أجل مصروفات جنازته ، محـاولة استنقاذ ابنه أهم ، عندما يموت يحلها ألف حلال ، وحتى اذا لم تحل .. فليدفن هكذا فى صمت ، ماذا سيحدث فى العالم لو لم ينصب سرادق ولم يحضر مقرئا مشهورا ولم يكتب النعى فى الجرائد ؟ على العكس .. ربما كان ذلك أفضل دينيا ..

بعد أيام يهبط فى مطار روما .. ثم يأخذ القطار الى مدينة فيارجيو حيث يقيم ابنه ، ليس لدى الابن تليفون .. وقدر انه سيصل ـ فى حالة ارسال خطاب اليه ـ قبل ذلك الخطاب ، لذلك فان حضـوره سـوف يكون مفاجأة لسمير ، المهم هل تكون المفاجأة سارة .. أم بالعكس ؟ طبعا فى أولها ستكون سارة .. فهو يعلم كم يحبه ابنه ، لكن من المؤكد ان آخرها لن يكون كذلك عندما يعلم ان سبب حضـوره هو محـاولة منع زواجه .. والتأثير عليه من أجل العودة الى الوطن ..

بغير عناء كبير وصل الأستاذ مختـار الى منزل الابن ، فيلا جميلة وسط حديقة صغيرة .. حوت فاخر الأثاث الى جانب جميع الأجهزة الكهربائية ، الدور الأسفل كان تقريبـا تحت الأرض .. كمثل البدروم ، يحوى صـالة المعيشة وبها كنبـة

كبيرة تفرد ليلا لتصبح سريرا وثيرا .. وأمامهـا التليفزيون والفيديو الخ الخ ، ثم المطبخ ودورة مياه صغيرة ، الدور الأعلى يتكون من غرفة النوم المتسعة .. ثم حمام أنيق ، لذلك فانه لم يدهش كثيرا عندما علم فيما بعد ان ايجارها خمسمائة جنيه ايطالى .. أى ما يقرب من الألف جنيه مصرى شهريا ! .

المهم عند وصوله تحقق النصف الأول من توقعه ، بل ان سعادة سمير برؤية والده فاقت كل توقع .. راح يصرخ ويضحك ويبكى فى آن واحد ، لكن النصف الثانى .. أى ضيقه من محاولة والده منع زواجه .. فلم يكن ممكنا وقوعه .. لسبب بسيط جدا ، وهو انه كان قد تزوج بالفعل !! « لكن لا بأس » قال الأستاذ مختار لنفسه « يمكنه ان يصحبها معه » ، حيث كانت بالفعل كما وصفها سمير فى خطابه .. رقيقة .. مبتسمة دائما .. تحب زوجها وتعمل كل ما بوسعها لاسعاده .

انقضت الليلة الأولى فى التحيات والاكرامات والذكريات، وفى الصباح التالى ـ ولحسن الحظ كان يوم العطلة الأسبوعية ـ صحب سمير والده فى نزهة بالسيارة ، قال له :

ـ نحن الآن فى بداية الشتاء .. لذلك ترى البلدة شبه خالية ، أما فى الصيف فهى شىء آخر .. انهم يطلقون عليهـا مصيف أصحاب الملايين ! ..

غمغم الأستاذ مختار مذهولا :

ـ يا الهى .. ما كل هذا الجمال ؟ لهم الحق .. أصحاب الملايين ان يأتوها من جميع أنحاء العالم ! ..

الشوارع واسعة نظيفة ، مساحة الحدائق ضعف مساحة المبانى .. الخضرة بجميع درجاتها تحيط بالمدينة وشوارعها من كل مكان ، الناس يسيرون الهوينا ، ليسوا متعجلين وكأن ورائهم سوط يسوقهم أمامه ، أغرب من هذا انهم يبتسمون ! من كم سنة لم ير أناسا يسيرون فى الشوارع مبتسمين ؟ أحس بغصة فى حلقه .. همهم :

ـ كانت مصر منذ أعوام طويلة أجمل بلاد الأرض .. لكنها أنهكت بعد سلسلة الحروب المتصلة .. لا سامحهم الله أبدا .. أولئك الذين بغطرستهم تسببوا فيها ..

انحرف سمير ليدخل فى طريق قال لوالده ان طوله سبعة كيلو مترات ، وهو قد شق وسط غابة .. وتركت بقية الغابة عن يمين ويسار ، وهكذا اصطف شجرها على جانبى الطريق .. وقد تعانقت فروع أشجار الجانبين المرتفعة بصورة بديعة .. شبهت للأستاذ مختار منظرا شاهده كثيرا فى أفراح بعض الأصدقاء أو الأقارب من الضباط .. حين يقف زملاء العريس من الجانبين وقد رفعوا سيوفهم ليسير العروسان من تحتها !

فتح عينيه على سعتهما وكأنه يشرب بهما ذلك الجمال ، ثم عاد يغمضهما وقد أحس كأنه بدوره عريس تزفه الأشجار شاهرة فروعها .. ولكن .. تزفه الى من .. أو الى ماذا .. بعد أن مضى العمر ولم تبق الا فلوله ؟ تزفه الى الموت .. ولا شيء سـواه ! ..

غريب أمر هـذا العقل .. ينتقل بالتفـكير فى ثوان بين الجمال والسعادة .. والغناء والحزن ، لكن .. ليس الموت دائما صنوا للحزن ، حالتـه هو .. بعد أن خدم بلده حتى سن المعاش ، وأدى مهمته تجاه أولاده .. لا يصبح الموت حدثا حزينا .. لا بالنسبة لأسرته .. ولا له شخصيا ، على العكس .. بالنسبة له يكون الموت راحة من التفكير فى الابن الغائب .. والقلق الدائم عليه ! ..

فجأة تجسدت أمامه صـورة نعمت .. تنظر اليه وقد امتلأت عيناها بالأسى ، وكأنهـا تعتب عليه هـذه الأفكار .. تمتم :

ـ غريب أمرك يا نعمت .. لمـاذا تلاحقنى صـورتك دائما وتلح على هكذا ؟ ! ..

نسى .. أو حاول أن يتناسى .. فى غمرة تصميمه على قراره القديم القاسى .. بالابتعاد عنها .. ان الصورة ليست

هى التى تلح .. ولكن من يستحضرها فى خياله ، حقا صـدق من قال .. ان أطول طرق الهرب .. هو ما يجريه الانسـان بعيدا عن نفسه !! ..

هز رأسه وكأنه ينفض عنه كل هذه الأفكار ليعود ويستمتع من جديد بجمال الطبيعة الأخاذ ..

مساء اليوم التالى يدخل الأسـتاذ مختار فى الموضـوع مباشرة :

ـ ألم تجمع بعد ما يكفيك من النقود يا سمير ؟ ..

ـ يكفينى من أجل ماذا بالضبط يا أبى ؟ الورشـة أم الشـقة ؟ سمعت أن نظـام الايجـار فى مصر قد أصبح مثل الديناصورات .. انقرض تماما ، وان ثمن الشـقة التمليـك المتوسطة لا يقل عن ثمانين ألفا ..

ـ بل أتحدث عن الورشـة ، أما الشقة فموجودة .. شقتنا الحالية .. بقليل من الاصلاحات تصبح ممتازة ، وأحب أن أبشرك أن أحلام ستتم خطبتها بعد أسابيع باذن الله ، ولن تمضى شهور حتى تذهب الى بيت زوجها ، وهكذا لك أن تعتبر الشقة شقتك .. وتعتبرنى أنا ضيفا مؤقتا لديك ، وحتى اذا لم يرق لك استضافتى .. يمكننى أن أذهب لأعيش فى منزل الأسرة بالريف ..

احتد سمير : ما هذا الذى تقوله يا أبى ؟ الشقة كانت وستظل شقتك ، أما عن الورشـــة .. فطبعا ما بقى معى بعد مصروفات الزواج وشراء السيارة .. لن يكفى ..

ـ ولن تجمع ما يكفى أبدا مهما طالت مدة بقائك هنا .. مادمت تســكن مثل هــذه الفيــلا .. وتنفق بهــذا البذخ الذى أراه .

ـ اتعب كثيرا فى عملى يا أبى .. وأظن من حقى ـ بعد عمل النهار الشاق ـ ان استمتع بحياتى ..

ـ وطالمــا تكسب كثيرا .. ثم تنفق كل ما تكسبه .. فما جدوى مكوثك هنا ؟ لعلك لم تنس ان غربتك هــذه كانت فى الأساس وسيلة لجمع بعض النقود .. وليست غاية فى حد ذاتها ، واذن فأنا أرى أن تعود الى بلدك .

ـ لكم اتمنى ذلك ، لا تظن اننى ســعيد جدا هنــا .. فما أفدح المقابل الذى ندفعه ثمنا للحلم .. وما أقسى ليــالى الغربة التى تمر على مترعة بالوجع ، لكن .. بالله عليك ماذا عساى أفعل فى بلدى وأنت أدرى بالحالة هناك ؟ ..

ـ يمكنك حتى ان لم تجد عمــلا ان تشارك فى زراعة أرض عمك .. هناك أزمة حاليا فى أعداد الفلاحين بعد أن هاجر أغلبهم ..

ـ وماذا أفهم أنا فى الزراعة ؟ ثم هل درست الميكانيكا فى المعهد كل تلك الأعوام .. لأعمل آخر الأمر فلاحا ؟ ! ..

ـ اذا كان على الدرايـة بالزراعـة .. فبامكانك أن تكتسب فيها خبرة كبيرة خلال شهور معدودة .. وأنت قادر على ذلك ، أما عن تعليمك فدعنى بدورى أسألك .. هل درست الميكانيكا كى تعمل هنا فى المعمار ؟ ! ..

ـ اننى اتقاضى عن عملى هـذا أجرا كبيرا .. يساعدنى على أن أحيا فى المستوى الذى تشاهده . والذى لا يستطيع أن يعيشه فى مصر مدير عام .. قضى فى عمله عشرات الأعوام!..

هكذا اجهد الأستاذ مختار نفسه فى اختيار كلمات مقنعة لابنه ، لكن كلماته كانت تعود اليه ميتة .. دون صدى ، بدأ يبكى .. لكنه كان بكاء داخليـا غير منظور لأحد .. حتى ولا لسمير ، أخيرا قطع الصمت الذى ران عليهمـا دقائق .. مرت ثقيلة :

ـ ماتت أمك دون أن تراها أو تراك ، فهل تنوى أن تكرر الأمر معى أيضا ؟ !

ـ متعك الله بالصحة وطول العمر يا أبى ، عموما أعرفك اننى يوما سأعود ، لكن بالتأكيد .. ليس قبل أن أجمع المبلغ

الذى يطمئنى اننى سأحقق به مشروعـا محترما فى مصر .. يسمح لى أن أعيش هناك فى مستوى يقرب من حياتى هنا ..

كانت لهجته مزيجا من الاحترام والحزم فى آن معا ، وهو يعدد الحواجز التى تحول دون ــ أو على الأقـل تؤخر ــ عودته لبلده ، أطرق مختار :

ــ هل هذا هو قرارك النهائى ؟ ..

ــ أجل يا أبى ، ويؤسفنى ألا أحقق رغبتك ، لكنى أعدك بأن أحضر الى مصر مرة كل عامين أو ثلاثة ..

لم يعرف الأب هل يضحك أم يبكى ، بعد ان كان يؤمل فى عودته معه .. من ثم يراه كل يوم وكل ساعة .. يعده ان يراه كل ثلاثة أعوام ؟ ! عاد سمير يتكلم .. لكن والده لم يعد يسمع صوته ، كانت أصوات أخرى تنطلق من داخله فى ذات الوقت لتقف حاجزا يمنع عبور كل الأصـوات الخارجية . ظن انه بأخباره السارة قد سهل الأمر لابنه .. لكن الأخير رأى فى طوق النجـاة الذى قدمه اليه ثقبا معيبا ، ضحك سمير :

ــ فيم تفكر يا أبى ؟ .. أحدثك فلا ترد على ! ..

تنهد الأب ثم غمغم :

ــ كنت أتساءل .. ترى فى سنى هذه .. كم ثلاثة أعوام بقيت لى ؟ ..

من جديد عادت صورة نعمت تتخـايل فى مواجهته .. لكنها كانت تبتسم هذه المرة .. ابتسامة رقيقة .. كأنما تحاول أن تربت بها على خده لتخفف من أشجانه ، ولأول مرة لا يحاول أن يشيح عنها أو يصرفها من أمامه .. أردف باندفاع :

ـ وطبعا ثلاث سنوات دهر طويل بالنسبة لانتظارى حتى تتكرم على بالزيـارة ، لذلك فاعتقد اننى ربما اتخذت قرارا خطيرا .. وساعتها لن يكون من حقك أن تلومنى عليه ؟ ..

تضاربت الهواجس فى رأس سمير عن قرار أبيه الخطير هذا ، هل ينوى ان يحرمه أو يطلب من عمه حرمانه من الميراث؟ هل سيترك الشقة ويقيم فى احدى دور المسنين ؟ هل يغضب منه فيقاطعه نهائيا ؟ الفكرة الأخيرة هى أشد ما أقلق سـمير .. لذلك سأل بتوجس :

ـ وما هو هذا القرار يا بابا ؟ ..

ـ لقد قررت ان ا ....

قطع كلامه فجأة وصمت .. صمت وهو يهمس لنفسه :

ـ هكذا خطأ .. يا سيد مختار ! ..

فى حين عاد سمير يلح فى السؤال :

ـ قررت ماذا يا أبى ؟ ! ..

قال الأستاذ مختار لنفسه :

ـ خطأ ان أذكر فكرة زواجى الآن ، مثل هـذه القرارات المصيرية لا تتخذ فى لحظة انفعال .. أو بمثابة رد فعل ، صحيح كان العائق الأكبر أمام تنفيذ تلك الأمنية .. خشيتى من عدم عودة سمير للوطن ، وصحيح انى أحب نعمت من كل قلبى .. لكن ما زالت هنـاك اعتبارات أخرى عديدة ، تقتضى التمعن والتروى قبل اتخـاذ هـذا القرار بصورة نهائية ، من ثم لا داعى أن أبوح بسرى قبل ذلك .

كان سمير ما زال ينتظر رد والده وقد ازداد القلق فى عينيه ، تنهد الوالد :

ـ قررت ان .. ان .. أبحث عن عمل ، حتى اشغل نفسى .. أو أملأ بعض أوقاتى ، لا تتصـور حالتى بعد المعاش ، أصبحت حدود حياتى تبدأ من غرفـة النوم .. وتنتهى عند الحمام ! ..

رغم ارتياح سـمير أن رد والده لم يشـمل أى فـكرة مما شغلت باله الا أنه أحس من رنة صوته بمدى ما يعتمل فى نفسه من مرارة .. لرفضـه طلبه بالعودة ، هذه المرارة آلمته جدا ، يحب والده بدرجة لا يستطيع وصفها أو التعبير عنها ،

لذلك لم يكن يود أن يكون السبب فى اثارة أحزانه ، لكنها حياته .. وقد اختار ما يعتقد أنه الأصلح والأفضل له .

الأستاذ مختار بدوره أدرك مدى ما أصاب ابنه من ألم وأسف ، من ثم شعر بالندم على ما أبداه من مرارة ، هل جاءه من آخر الدنيا كى يؤلمه ويثقل ضميره ، ألا يكفيه تعبه المضنى فى عمله .. وكفاحه من أجل اثبات ذاته ، لذلك حاول أن يصطنع المرح وهو يعلق على برنامج تليفزيونى يذاع أمامه ، متخذا من مرحه هذا ستارة تخفى ما بداخله ! ..

اطمأن سمير بعض الشىء على اعتدال مزاج والده ، فاستأذن منه للنوم ، قبل أن يصعد الى غرفته حاول الأستاذ مختار أن يضحك فى وجهه .. لكن ملامحه فشلت حتى فى صنع ابتسامة صغيرة ، أغلق التليفزيون والأنوار .. ثم تمدد لينام ، لكن النوم عانده . رفض باباء وشمم . أن يستضيف مهزوما ..

بعد يومين حل أحد الأعياد القومية ، وهو من الأيام القليلة جدا التى يعطل فيها العمل بدور الحكومة والشركات ، لذا وجدها سمير فرصة أن يصحب والده الى بعض المعالم الهامة أو الجميلة .. التى تقع بالقرب من مدينته ، ربما كنوع من الاعتذار عن عدم تحقيق رغبته ! ..

بدأ بمدينة بيزا ، وذهبوا لرؤية برجها الشـهير .. أحد عجـائب الدنيـا السبع ، للوهلة الأولى بهر الأسـتاذ مختار لمنظره الفريد ، بعد لحظات تذكر أهرامات الجيزة .. وتمثـال أبو الهول المعجزة .. بجوارهـا لا يصبح برج بيزا شـيئا ذا بال ! الفرق فى حسن استغلال الأثر . بدءا من الدعـاية المكثفة لجذب السياح .. ووصولا الى التحف الصغيرة التى تباع بالمحـلات العديدة المنتشرة ، ضحك الأستاذ مختار :

ـ حتى العيوب حولوها الى مكاسب ؟ هذا البرج مال بالتأكيد لعيب فى تصميمه أو تنفيذه . ليأكل ويعيش آلاف وملايين ! ..

لكن أكثر ما أعجبه انه لم يجد داخـل حرم البرج أية محلات لبيع المـأكولات أو المشروبات أو التسالى ، كلهـا فى الخارج .. حول موقف السـيارات ، لذلك يبدو مكان الأثر نظيفا لامعا .. يبعث فى النفس الشعور بالاحترام .. الذى قد يصل الى حد التقديس ! ..

بعد لحظات فى تأمل البرج كف الأستاذ مختار عن الثرثرة واطلاق الملاحظات ووجم بعض الشىء .. خطر له خاطر غريب.. شبه له البرج بشخص تقدم به العمر فانحنى الى الأمام ، لحظتها كان يمشى مسترخيا .. لكنـه اذ خطرت له هـذه الفكرة ، وجد نفسه تلقائيا يفرد ظهره ويسير منتصبا ! .

اذن كان محقـا عندما قرر منذ أيام .. أن الموت لمن فى مثل سنه ليس حادثا سيئا جدا ، فمن ذا الذى يريد أن يعيش حتى ينحنى جذعه ويصبح « فرجة » مثلما أصبح برج بيزا ـ بعد انحنائه ـ فرجة للناس جميعا ؟ والقيـاس مع الفارق .. فالمتفرجون على البرج يفعـلون ومـلء أعينهم الاعجـاب . أما المتفرجون من الصبيان المراهقين . على عجوز مقوس الظهر . فان مشـيته المتعثرة .. لن تثـير فيهم سـوى الاسـتهزاء والسخرية ! ..

ما زال فى موضوع الزواج متحيرا بين الاقدام والاحجام حتى هـذا التفكير العابر الذى أثاره منظر البرج المنحنى .. انعكس عليه ، فأقنع نفسه أولا بالعدول عن الفكرة .. طالمـا بينه وبين الشيخوخة فركة كعب ، لكنـه عـاد يؤكد لها ـ مرة أخرى ـ بأن ذلك قـد يكون أدعى لأن يرتبط من الآن وهو بعد بصحته .. حتى يجد من يؤنسه ويرعاه ويتكىء عليـه . عندما تداهمه هذه الشيخوخة ! .

بعد الانتهاء من زيارة بيزا توجهوا الى مدينة فلورنسا .. بلد مايكل أنجلو الرائعة ، لكأن المدينـة كلها عبارة عن متحف مفتوح .. يزخر بالتماثيل الفنية فى كافة الميادين والشوارع ، المبانى والكنائس والمتاحف .. أى جهد وأى وقت وأى فن بذل فى زخرفتها بهذه الصورة المذهلة ؟ .

لم ينس سمير ان يلتقط لوالده عددا من الصور التذكارية أمام بعض التماثيل ، وأيضا مع الحمام الأليف . حيث راح الأستاذ مختار يقلد عددا من السائحين أمامه .. يضع الحب على يديه كى يصعد الحمام ويلتقطها منها .. من ثم يصوره سمير فى هذا المنظر الطريف ، لكن الأخير أحب أن يداعبه ، وضع مزيدا من الحب فوق رأس وكتفى والده .. دون أن يشعر ، ولم يكذب الحمام خبرا .. حط أيضا على رأسه وكتفيه وراح ينقرها وهو يلتقط الحب ، حتى لقد بوغت الأستاذ مختار . لكنه بعد قليل راح يضحك بشدة كالأطفال .. وسمير يلتقط له الصور من كل الزوايا .. وبكل المشاعر ، وهو مذعور يحاول احناء رأسه .. وهو يضحك ويهلل ، أول مرة يضحك من قلبه منذ تلك الليلة الفاصلة .. التى ايقن فيها استحالة تحقيق أمله الغالى بعودة ابنه معه .

الى جانب سعادته والحمام يتناول طعامه من يديه .. كان يشعر بالدهشة .. هذه الطيور دائما تخاف وتطير مبتعدة . اذا اقترب منها انسان ، لكنها هنا مختلفة ، هل لانها تشعر بالأمان . حيث من عشرات السنين لم يحاول أحد أن يذبح احدى هذه الحمامات .. أو حتى يمسك بها ؟ لكن .. هذا معناه أن تلك الطيور تستعمل عقلها .. اذا أحست بعدم الايذاء

من الانسان أقبلت عليه دون خوف .. بينما المفروض والمتصور أنها تتصرف من وحى الغريزة فقط . همهم :

ـ يبدو أنه قد حدث تبادل بين الطيور والحيوانات وبين الانسان .. فأصبحت الأولى تستعمل العقل والأخير يتصرف بغريزته !! ..

قال ذلك فى دخيلته وهو يشاهد العديد من الشبان والشابات من حوله يتبادلون العناق والقبلات واللمسات .. بعضهم زادها نوعا مما جعله يشيح بوجهه .. حتى ضحك سمير :

ـ رغم أن شرقيتى تمنعنى أن أفعل مثل هؤلاء . لكنك لابد تشاركنى انه شىء جميل للغاية . اذ يعنى منتهى الحرية الشخصية ! ..

وضع سمير .. بتعليقه الصغير هذا .. يده على سبب المشكلة أو التناقضات بينه وبين والده .. اذ وضح منه مدى تباين زاوية الرؤية .. أو اختلاف وجهات النظر بين الأجيال ، فالشىء الجميل جدا فى نظر سمير .. كان شيئا سيئا فى نظر الأستاذ مختار ، ومنتهى الحرية فى نظر الابن .. كان منتهى الاباحية فى نظر الأب ..

بدأ قرص الشمس الذهبية يبتعد فى الأفق . على وعد

بلقاء جديد .. فقاموا يغادرون المكان ، وهم يركبون السيارة صمم سمير ـ ككل مرة منذ حضور والده لزيارته ـ أن يجلس بجانبه وتجلس زوجته بالخلف ، ويحتج مختار :

ـ عندنا فى مصر .. أحيانا تقبل بعض الزوجات ذلك .. لكنى لا أعتقد أن الأوربيات يقدرن هذه العواطف .. أو القيم ، من ثم ربما تستاء عروسك .

ـ لا .. اطلاقا .. أحس دائما أن ما يسعدنى يسعدها ..

ـ هناك أمر آخر .. الطريق من منزلك حتى فلورنسا استغرق أكثر من ساعتين .. تحدثنا أنا وأنت طوالها اللغة العربية التى لا تفهمها .. حاول ونحن فى طريق العودة .. أن تحدثها أحيانا بالايطالية .. حتى لا تضجر ..

ـ أنت حساس أكثر من اللازم يا أبى ، لابد أنها تقدر أن بداخلى عطش شديد لأخبار وأحوال أهلى وبلدى .. عطش عمره أربعة أعوام .. وريه عندك أنت وحدك فى حديثك الذى أوحشنى جدا ..

ابتسم الأب :

ـ اذن اعتذر لها نيابة عنى ، عموما ما يهون الأمر على .. أنها أيام .. طالت أم قصرت ، ثم أغادركما لتعود أنت

كلك .. لها وحدها .. من جديد ، بمشـاعرك وحديثك .. وحتى المقعد المجاور لك فى السيارة !

تفحص سمير وجه والده ، وأيضا لهجة حديثه .. لكنـه أحس بالارتيـاح .. كانت خالية تماما من أى لذعة مرارة ، عندما اطمأن الى ذلك .. مال على خده بقبلة حنونة .. وهو يضحك ضحكة مجلجلة ، أحس الأستاذ مختـار كأنهـا ـ الضحكة ـ قد ذابت فى نسمات الليل .. فأدفأتها ! ..

عندما اكتملت للأب عشرة أيام على بدء حضـوره .. أعلن لابنه رغبتـه فى العـودة الى الوطن .. لكن الأخـير يدهش ..

ـ لمـاذا التعجل ، والله « ما ييجى » على تعب السفر ؟ ! لم يجد ما يرد به سوى هـذا الجواب الذى لا مدلول له :

ـ ورائى مصالح !

وهل كان يعقل أن يؤكد لابنه شعوره بأن نعمت تنتظره ؟ يفكر فيها كثيرا .. والأساطير تقول انه اذا فكر شخص فى شخص آخر طويلا فلابد أن هذا الآخر يبادله تفكيره ! دهش سـمير :

ـ أية مصالح ؟ اعلم أنك الآن بالمعاش ..

ـ لا تنس أن أحلام ...

قاطعـــه :

ـــ قلت لى بنفسك ان اقبال وزوجها يقيمان الآن فى شقتك مع أحلام ، وأعتقد ان ذلك قطعا يسعدهما كلتيهما .. فلاشـــك أنهما متوحشتان لبعضهما كثيرا ..

ـــ لكن ..

ـــ لكن ماذا ؟ انك لا تجد أسبابا .. سوى ان اقبـــال وأحلام قد أوحشتاك ، كأنما هما فقط ابنتاك .. وأنـــا لست بابنك ، أو انه ليس لى فى قلبك نصيب !

كان الغضب قد بدا يشوب لهجته فاحتج الأستاذ مختار :

ـــ تعرف جيدا أن لك النصيب الأكبر ، والا ما طلبت منك .. وألححت .. أن تعود معى ..

ـــ واذا لم يكن متيسرا عودتى .. أفلا يعوض من ذلك اطالة مدة اقامتك أنت معى ؟

ـــ طبعا لا ، حيث مهمـــا طالت اقامتى .. فانهـــا يوما ستنتهى .. ليبدأ شوقى اليك مرة أخرى .. بعد الشهر الأول لعودتى ، تماما كما أنك مثلا لن تستطيع أن تختزن فى معدتك طعاما يكفى لفترة طويلة .. ومهمـــا أكثرت من الأكـــل ذات

مرة .. فانك لابد بعد أيام معدودة من عدم الأكل .. ستعود وتشعر بالجوع !

ـ لست أدرى من أين تأتى بهذه التحليلات والتشبيهات ؟ لا ريب من قراءاتك الكثيرة ، وأنا طبعا لن أستطيع مجاراتك فى المناقشة ، لذلك فاننى اختصر القول .. بأنك لن تسافر الا بعد اكتمال الشهر .. ولن أقبل بأقل من ذلك يوما واحدا !

ـ اذن لنقسم البلد بلدين .. فأطيل اقامتى عشرة أيام أخرى ..

ضحك الابن .

ـ بعد عشرة أيام يحلها الحلال !

سادت لحظة صمت ليقطعها سمير فجأة سائلا والده :

ـ سامحنى يا بابا على هذا السؤال .. لماذا لم تتزوج بعد رحيل ماما .. رحمها الله ؟

دق قلب مختار .. ها هو ذا ابنه بنفسه يفاتحه فيما يود ويتمنى .. اذن هى فرصة ان يصارحه ، لكنه لا ستطيع البوح فيغمغم :

ـ لم أرد أن أحضر لكم زوجة أب ، آه معذرة .. جمعتك مع شقيقتيك .. لأنى كنت دائما أؤمن أنك لابد عائد .. لتستأنف حياتك معنا ..

ـ حسنا .. لكن الآن الوضع قد اختلف ، بعد زواج البنات .. من حقك أن تتزوج لتجد من تؤنس وحدتك ..

سأل بحذر .. كشخص يتحسس طريقه :

ـ فى هذه السن .. فى الثالثة والستين ؟ !

ـ هنا يعتبرون أن الحياة تبدأ بعد الستين !

لم يعرف مختار هل يسعد أم يأسى لرد سمير ، يسعد لأنه يبدد مخاوفه أو توجسه من ناحية عمره .. أم يأسى لأن اقتراحه هذا يعنى رغبته فى اعفاء نفسه من احساس الشعور بالذنب ، بمعنى أصح .. رغبته فى غسل يديه من مسئوليته ، رأى على أى الأحوال أنه يجب عليه توضيح موقفه :

ـ لابد ظننتنى جئت أطلب عودتك بعد زواج البنتين .. حتى لا أقاسى الوحدة ؟

ـ لا طبعا .. أعرف جيدا أن مصلحتى كانت هى هدفك الأول .. حيث ظننت زواج شقيقتى يحل مشكلة الشقة بالنسبة لى .. فجئت تبشرنى .

ـ لكن مع الأسف .. جاءت الشقة بعد اذ لم تعد بحاجة اليها .

بعد أيام يذكر سمير لوالده أنه يجب أن يسافر يوم السبت الى مدينة مجاورة كى يدفع رخصة سيارته .. حيث هذا

آخر يوم لها .. وهـذه البلدة هى بلدة أسرة زوجته ، وهو كان قد وعدهم أن يزورهم معها فى نهاية الأسـبوع .. كى يحضرا حفل زفاف شقيقها يوم الأحد ، وطلب منه أن يسافر معهما ، لكن الأستاذ مختار يعتذر .. انه لا يجب أن ينزل على اناس لا يعرفهم ، خاصـة وهم يستعدون لزفاف ابنهم ، فبالتأكيد سيكون منزلهم مزدحمـا بالكثـير من الأقارب الأصـدقاء المدعوين ، طمـأن ابنه بأنه لن يمل يوم السبت من الفرجة على التليفزيون .. الذى يحوى تسعة وتسعين قناة ، وأنه سيقضى يوم الأحد فى المطبخ .. ليفاجئهم عند عودتهم ببعض الأطعمة المصرية التى لابد قد أوحشته !

رغم هذا التأكيد من جانبه لطمأنة ابنه .. فلا يعلم الا الله كيف مر عليه هـذان اليومان ، حتى التليفزيون .. لم يستطع كسر وحدته القاسية ، متعته وهو يشـاهد برامجه ان يبدى رأيه .. « حوار رائع » .. أحداث سخيفة .. تصرف غير مبرر .. تمثيلية مسفة .. كوميديا راقية .. هـذا المسلسل يسىء للبلد .. الخ الخ ، بدا يتسـاءل بدهشـة .. « كيف استطعت أن أعيش بدون شريك أو أليف ؟ ولكن .. هل كنت أعيش حقا ؟ لقد كانت حياة بلا روح .. بلا قلب » .

كانا يومين فقط .. لكنه رأى فيهما عينة بينة مما ينتظره فى منزله من عزلة فظيعة .. بعد زواج ابنته الصغرى ، كان

يشكو دائما انها لا تمنحه سـوى ربع أذن وهى تستمع اليه.. لكنها على أية حال كانت تستمع ، لا يستطيع أحد أن يعيش فى هـذا الصمت الرهيب ، أى انسـان فى حاجة الى شخص يتحـدث اليه .. يفتح له قلبـه .. ويخبره بكل ظـروف ومشـاكل حياتـه .. فينصت اليه بحنـان وتعاطف ، يفرح لفرحه .. ويحزن لحزنه ، خيل اليه أن الأطباء النفسانيين .. ما كثروا وراجت عياداتهم الا بسبب وجود أشخاص حرموا هذا الشريك المتفهم .. فالتمسوه عند الطبيب ، يذهبون اليه .. ويدفعون كشـفه .. فقط من أجـل أن يتمـدد الفرد منهم براحته .. ويظل يحكى .. فيصغى النفسانى !

عموما كما يقولون .. رب ضارة نافعة ، كانت لوحدته هذه .. الفضـل كل الفضل .. انه أخيرا حزم رأيه واتخذ قراره النهائى .. الزواج ، ورغم وثوقه التام من موافقـة نعمت على ذلك .. بل رغبتها فيه..كما ألمحت الى ذلك فى محادثتها.. الا أنه فضـل ألا يذكر أى شىء لسمير .. الا بعد عودته لمصر .. والاتفاق مع العروس ، حيث فى هذه الأمور لا يغنى التلميح عن التصريح ، أحس بالسعادة تلفه عقب توصيله لاتخاذ القرار .. من ثم راح يبدع فى طهو العديد من الأكلات ..

بعد انتهـائه من آخر أصـناف الطعـام .. جلس أمام التليفزيون .. منتظرا حضـور سمير وعروسـه ، لكن الليل

ينتصف دون أن يحضرا ، وبدأ القلق ـ كأنه أسراب من النمل ـ يدب داخل دماغه ، فرغم أن سمير قد ترك والده .. ضيفه العزيز .. هذين اليومين لسببين غاية فى الأهمية .. الا أنه راح يعتذر اليه عشرات المرات ساعة سفره ، اذن فمن غير المعقول ان يمد غيابه يوما آخر لأن زوجته .. أو أسرتها .. مثلا ـ رغبت فى ذلك ، أهم من هذا ان اجازته قد انتهت ، وأنه يجب أن يعود الى عمله صباح الاثنين ، وفى تلك البلاد ينظرون للعمل على أنه شىء مقدس .. ولا يعتقد أنه توجد فى قاموسهم كلمتا .. عرضى أو مرضى !

اذن فلابد قد حدث شىء ، خاصة والجو على ما يبدو قد أصبح عاصفا ، رغم انه لم يخرج .. لكنه يسمع صوت المطر ينقر بأظافره النوافذ .. مصحوبا بصوت الرعد ، راح يصلى .. ويقرأ القرآن .. داعيا الله أن يعود ابنه سالما ، الوقت يطول .. لتتكوم الدقائق فى كتلة زمنية كبيرة ، رفض أن ينام .. بل راح يقاوم فراشات النعاس التى بدأت تحوم حول أجفانه ، لكنها أخيرا غلبته .. فنام على كرسيه أمام المدفأة .

استيقظ من غفوته ليجد الساعة تشير الى أن صباح الاثنين قد حل فعلا ، أحس بقلبه يغوص عند قدميه .. لم

يعد سمير بعد .. فماذا يفعل ؟ .. لا يعرف عنوان أو تليفون أسرة عروسه .. بل لا يعرف حتى ان كان لديهم تليفون من عدمه ، راح يسير فى غرفة المعيشة كحيوان حبيس ، أخيرا قرر أن يخرج من الفيلا .. ربما يعرف الجيران شيئا ، لكن الباب لا يفتح .. عجبا ، لا يظن ان ابنه قد أغلقه عليه من الخارج ، ذهب يفتح احدى النوافذ .. ثم الثانية .. والثالثة ، كلها لا تفتح ! بعد محـاولات أدرك الحقيقة .. الثلوج ظلت تهطل طوال اليومين الماضيين .. حتى غطت مدخل الفيلا الذى ينزل اليه بعـدة درجـات .. معنى ذلك أنه مدفـون الآن تحت الثـلوج ..

أحس بالذعر .. بدأ يخبط الباب والنوافذ .. ويصيح .. لكن أحدا لا يسمعه .. حيث أقرب فيـلا اليهم تبعد بأمتـار عديدة ، اذن فهذا هو سبب عدم مجيء ابنه ، حالت الثلوج دون دخوله ، لكن لا .. مستحيل .. لو عـاد سمير ووجد الأمر كذلك .. لكسر الجليـد كى يصـل اليه .. حتى ولو استعان بالمختصين وأجهزتهم ، غطى قلقه لتأخر ابنه .. على قلقه من أجل وجوده تحت الثلوج ، بدأت الدقائق تمر كما ساعات .. والساعات كما أعوام .. والغائب لا يعود لابد أن يخرج .. لابد ، ربما تكلم بالتليفون لدى أحد الجيران عن اضطراره للتأخير .. من ثم يطمئن ..

فى مخزن صغير ملحق بالمطبخ .. وجد بعض الأدوات ، راح يعمل بالأجنة والشاكوش حتى كسر النافذة المطلة على الشارع .. لكن الثلج كان شديد الصلابة خارجها ، أحس أنه أقل صلابة فى المنطقة التى تعلو النـافذة .. لا بأس عمد الى نقب الحـائط ثم الجليـد حتى رأى نور الشـارع بل نور الشمس ..التى كانت قد أزاحت قناعها الأسـود .. ليتجلى نورها الصبوح على الكون ، لكن طبقات أخرى من الجليد تبدأ فى الانهيار لتسد الثغرة التى أحدثها .. فيعاود الحفر مرة أخرى .

من الثغرة الجديدة أخرج رأسه وصاح يستغيث ، أسرع اليه شابان ورفعاه الى الخـارج ، كان الجليـد بالفعل يكاد يتساوى مع الشارع مغطيا بدروم الفيلا تماما ، عجب انه وسط ذعره من دفنه تحت الثلوج .. وقلقه على ابنه .. فاته أن يصعد الى الدور الأعلى ويفتح احدى نوافذه ، لو فعل لوجد ان بينه وبين سطح الجليد لا يزيد على مترين..لم يكن ليعييه قفزهما.. بدلا من كل ذلك الحفر الذى أجهده .. وأيضا أحدث اتلافات بالفيلا .. عموما المهم الآن أن يسأل عن ابنه ، سأل الشابين بالانجليزية :

ـ هل منكم من يعرف سمير مختار ؟

لم يفهم الشابان شيئا .. وبدآ يحدثانه بالايطالية .. بعد

لحظات انضم للشابين ثلاثة آخرون .. ثم غيرهم وغيرهم ، كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة .. وهى موعد عودة الجميع الى منازلهم للغداء .. قبل الذهاب للعمل مرة أخرى حتى الثامنة مساء ، لذلك كان الشارع يعج بالناس وكثير ممن رأى منظر العجوز الغريب يتحدث حائرا منهارا .. يقتربون عساهم يستطيعون تقديم مساعدة .. حتى أصبح حوله أكثر من عشرين شخصا ، الكل يسأله بالايطالية .. وثلاثة أو أربعة .. يبدو انهم مثقفون يحادثونه بالفرنسية .. وهو لا يفهم من هاتين اللغتين كلمة واحدة ، فكر انه ربما أحدهم يفهم العربية فكرر أسئلته بها « هل يعرف أحد منكم ابنى سمير ؟ هل يسكن أحدكم قريبا من هنا .. ربما يكون سمير قد حادثه تلفونيا كى يبلغنى انه سيتأخر ؟ هل سمع أحد عن أية حوادث للسيارات مساء أمس على طريق الأوتوستراد ؟ » ، لكن مع الأسف .. لم يكن حظ اللغة العربية ، بأفضل من الانجليزية .. فلم يفهم أحد منه شيئا .. كما لم يفهم هو من أحد شيئا .. ظل واقفا وسطهم وهم يحدقون فيه بدهشة واستغراب .. كأنه مخلوق هبط عليهم من كوكب آخر !!

أحس بالدوار ، تداخلت الأصوات وامتزجت لتصبح طنينا غريبا .. ثم تتلاشى تماما ، تحولت الوجوه من حوله الى تماثيل شمعية متجمدة ، اكتشف شيئا غريبا ، كانت بينه وبين

الناس حواجز من الزجـاج والخشب والألومنيوم .. ثم من الطوب والأسمنت .. ثم من الجليد ، فاستطاع بشيء من الجهد أن يهدم كل هـذه الحواجز .. الآن بينه وبين الجميـع حاجز اللغة .. لكنه لن يستطيع أبدا ــ مهمـا بذل من جهد ــ أن يخترق هذا الحاجز الجديد !!

بدأت قواه تخور .. حل عليه تعبه فى تحطيم الثلوج .. وتعب الحديث بلا طائل مع كل هـذه الجموع .. مقرونـا بالحيرة والقلق واليأس .. واحساس بالضياع ، لكنه وسط هذا الدوار .. شاهد سيارة بنفس لون وموديل سيارة ابنه .. قادمة من أول الشارع ، هل كانت سيارة سمير فعلا ؟ أم سيارة أخرى مشابهة .. أم انه لم توجد سيارة أصلا .. وانما صورتها له لهفتـه ؟

مد رأسه محـاولا استطلاع رقم السيارة .. أو وجـه قائـدها ، لكن قبل أن يتأكد من أى شيء .. سـقط مغشيا عليـه !

فتح الأستاذ مختار عينيه ليجد نفسه راقدا على سرير بأحد المستشفيات .. وبجواره جلس سـمير يدلك يديه ووجهـه بالكولونيا ، فى ثانية انتفض جالسا وهو يجذب ابنه اليه .. هتف بعد تنهيدة ارتياح :

ـ الحمد لله .. اذا كان حقا ما شاهدته .. انك قادم بسيارتك ، ولم يكن ذلك حلما أو خيالا ! ، آه يا سمير .. لقد قلقت عليك ..

ـ أنا أيضا يا أبى .. قلقت جدا عليك ، كدت أجن عندما بدأت الثلوج تتساقط ، ولو أن ذلك حدث قبل سفرى .. ما سافرت ، خشية من مثل ما حدث لك .

ـ لا عليك .. المهم أنك بخير .. فداؤك روحى يا سمير ..

ـ لا حرمنى الله منك يا أغلى الناس .

ـ لكن .. كان المفروض أن تأتى أمس .. فما الذى أخرك ؟ ..

ـ تراكم الثلوج أغلق طرقا عديدة .. كان منها الطريق الى بلدتنا هنا .. ولولا سرعة تصرف السلطات بالآلات والأجهزة الحديثة .. التى مكنتهم من رفع الثلوج بعد ساعات فقط .. لظللت معزولا عنك عدة أيام .

شهق الأستاذ مختار عند سماعه هذا الافتراض .. رغم أنه لم يحدث ! أحس بجسده يقشعر ، يا للهول .. عدة أيام وسمير معزول عنه ؟ .. لا يستطيع حتى أن يعرف ماذا أخره .. أو يعرفه هو ماذا حدث له أو مر به ؟ تجربة قاسية لا يظن

أنه سينساها طوال حياته .. حمدا لله ان انتهت ، ليست تجربة مفردة .. بل أربع التحمت فى ضفيرة واحدة ، تجربة الشعور بأنه قد دفن ــ وهو بعد ما زال حيــا يرزق ــ تحت جبــال الجليد ، تجربة أب يقلق لتأخر وحيده فى العودة من السفر .. وسط جو عاصف ممطر .. رهيب ، لا تكاد الرؤية فيه تبين لعدة سنتيمترات ، تجربة قلب حائر وحيدا فى بحر الحياة .. رأى أخيرا شاطىء الأمان ، لكن العواصف تهب والبحر يثور .. فتكاد المركب أن تنقلب قبل أن يبلغ هــذا الشاطىء ، ثم أخيرا التجربة العجيبة .. وقوفه وسط أناس لا يتمكن على الاطــلاق من تعريفهم بنفسه أو بمشكلته .. ليصبح وكأنه طفل أفلت من يد أمه ــ فتاه عنها ــ فى ساحة مولد مزدحمة !! تنهد لانقشاع هذا الكابوس .. ربت يد ولده :

ــ لكننى لست مريضا .. كنت فقط مرهقا لمــا مر بى ، فما الداعى لوجودى هنا ؟

ــ قال الطبيب انك تستطيع الخروج بمجرد افاقتك ، والحمد لله .. الثلوج كلها أزيلت .. والحــائط المتهدم تم اصلاحه هو والنافذة ، أيضا أرسلت زوجتى الى هناك منذ ساعة .. بعد أن أوصيتها أن تعد عشاء محترما من أجلك .. طبعا لم تأكل شيئا طوال اليوم .

كان الطبيب قد أوصى أن يخرج الأســتاذ مختــار الى

السيارة على كرسى متحرك .. حتى لا يجهد فى السير .. لكن تأخر حضور الكرسى ، فما كان من سمير الا ان حمل والده الى السيارة ، حاول الأب أن يعترض لكن الابن يداعبه :

ـ لعلك لم تنس كم حملتنى ؟ .

ـ والآن يتحتم على الممثلين فوق خشبة المسرح أن يتبادلا الأدوار ؟ !

عندما حل يوم الأحد الثانى كان الأستاذ مختار قد استرد صحته تماما ، لذلك اقترح عليه سمير أن يخرجوا للنزهة .. أخبره انه سيذهب به الى مكان سوف يروقه كثيرا .. بلدة مجاورة تدعى « بوتشينى » ، وبوتشينى هذا موسيقار كبير طارت شهرته الى العالم كله ، المدينة ذات رونق بديع بحق ، كأنها حديقة كبيرة ، من أول دخوله اليها أحس الأستاذ مختار أنه يسير وسط مهرجان من الحسن والجمال ، وفقط كان ينقصها ليكتمل الجمال .. أن تكون نعمت معه .. يدها فى يده ، قرر بينه وبين نفسه أن يأتى معها بعد الزواج ، ضحك فى نفسه بخجل « كى أقدمها لسمير .. وليس لقضاء شهر العسل ! » ..

بعد الاعجاب كانت الدهشة ، كل ما رآه فى هذه المدينة أثار دهشته ، لفرط اهتمام الدولة بابن لتلك البلدة نبغ فى فنه ! نصف البلدة سميت باسمه .. فيلته حولوها الى متحف يحوى

جميع متعلقاته .. لتصبح مزارا يأتيه الناس من كل صـوب ، الكازينو الجميل على البحيرة .. صدرت الأوامر بابقائه على نفس الصـورة البسيطة من الخشب .. التى كان عليها منذ كان يرتاده بوتشينى العظيم .. ليكتب فيه ألحانه .. ويكفى من يدخله فخرا أن يقول انه جلس فى نفس الكازينو ، الذى كان يجلس فيه الموسيقار الكبير ، جميع المحـلات السياحية فى المنطقـة .. والتى تحيط بتمثـاله الكبـير المقـام قرب منزله ـ تحوى تحفا تذكارية .. كلها عنه ، علب من الرخام .. مختلفـة الأشكال والأحجـام .. تحمل صـورته ، وأيضـا أباجورات .. أطباق للتعليق .. وحتى ايشاربات للسيدات .. وتيشرتات للشباب .. عرائس ببلوهات .. كلهـا كلها مزينـة بصورة الفنان الكبير ، عدا بعض التماثيل الصغيرة له ! ..

فورا عادت ذاكرة الأستاذ مختار الى أم كلثوم .. المطربة العظيمة التى أسعدته خلال أيام شبابه المشحون بالمشاعر .. كما أسعدت ملايين وملايين من الناطقين بالعربية .. على مدى نصف قرن ، باعت أسرتها فيلتها الأنيقة على نيل الزمالك .. لتهدم ويقام مكانها عمارة من الطوب والأسمنت ، وذلك على مرأى ومسمع من وزارة الثقافة .. التى لم تحرك ساكنا !! شعر بالأسى يغمره .. وكأنه موعود به ، كلما حاول أن يندمج فى متع الرحلة ويستمتع بها .. تعيده اليه بعض الذكريات !

دعاه سمير لجولة داخل البحيرة الشاسعة فى مركب أنيق ، مازال الشباب فى المركب يتبادلون القبلات .. يبدو أن ذلك المنظر قد أصبح شيئا عاديا بالنسبة للضيف القادم من الشرق .. اذ انه لم يعد يشيح بوجهه ! ..

فى طريق العودة الى السيارة .. رأى الأستاذ مختار ان يختصر الطريق .. بالعبور فوق مساحة مزروعة بالنجيل .. أمام الكازينو .. بدلا من الدوران حولها ، واذا بعروس سمير — رغم احترامها الشديد له طوال اقامته لديهم — تصرخ فيه بشدة .. لدرجة جعلت خصلات شعرها المنسكبة على جانبى وجهها تهتز :

— نو .. نو .. لا .. لا .. بابا ..

أسرع اليه سمير وهو يقول بخجل لا يدرى أحد بالضبط أكان منه أو له :

— يهتمون ويعتنون هنا جدا بالخضرة ، لقد قلت لك ان شركتنا تقوم أحيانا ببعض الاصلاحات فى المنازل .. التى كما ترى تحيطها الخضرة من كل جانب .. وتتدلى الزهور من شرفاتها ، لا تتصور عندما نذهب للعمل فى أى منزل .. فأكثر ما يهم أصحابه الا تمس زهورهم بأدنى سوء ! ..

أثناء حديثه مد يده يحيط بها كتف والده كأنه يعينه على

السير .. تشبث الأب بذراعه .. وكأنى به يقبض على اللحظة قبل أن تفلت وتصبح ماضيا ، أو كأنه يقول من أعماقه .. آه لو عاد الزمن الى الوراء خمسة أعوام .. لمـا تركتك تغادر بلدك .. وتغادرنى أبدا ! ..

فى المساء جلس الثلاثة أمام التليفزيون ، كان سمير قد تعود أن يختار قناة تعرض برنامجا استعراضيا .. أو فيلمـا يعتمد على الحركة أكثر من الحوار .. حتى يستطيع والده متابعته ، لكنه ليلتها استأذنه أن يشاهد فيلما عن اغتيال جماعة الألوية الحمراء للسياسى الكبير .. ألدومورو ، قائلا : انه فيلم هام جدا..تحدثت عنه الصحف كثيرا..لأن الحكومة كانت قد منعت عرضـه عدة سنوات ، ولم تغير قرارها الا حديثا .. حيث الفيلم يتحدث عن دور واضح ـ غير مشرف ـ للحكومة فى هذا الاغتيال ، وكأنهم بدورهم كانوا يودون التخلص منه!..

تذكر الأستاذ مختـار أحداث هذه الجريمة التى قرأ عنها أيامها فهزته بشدة .. جعلته يستمر فى متابعة أخبارها ، شـده الفيلم فعلا وكان سمير يقوم له بالترجمة .. حتى جاءت لحظة الاغتيال .. فأوجعه قلبه ، لم يرحم الجناة شيخوخة الرجل ، هل من أجل هذه الشيخوخة تعاطف معه ؟ قال لنفسه :

ـ ألم أقل لك يا مختار انك من عناه عبد الحليم حافظ بأغنيته « موعود معايا بالعذاب موعود » ؟ ! ..

لكن ما الغريب فى ذلك .. يكاد يوقن أن الحزن تراث مصرى .. ربما يرجع الى أيـام الفراعنـة .. الذين احتفوا بالموت .. وجعلوا له كل تلك الطقوس .. وأقاموا من أجله المعابد والأهرامات ، بأكثر مما عنوا بالميلاد أو الزواج !! وهل أدل على ذلك من عادة غريبـة كان دائما يراها فى كل مكان تواجد به .. فى سهراته مع الزملاء والجيران بالعاصمة .. وأمسياته فى بلده بالريف مع الأقارب والأصدقاء .. سـواء بسواء ، كلما « حليت » الصحبة .. وعمرت بالمرح والفكاهة والنكات .. بحيث تنطلق الضحكات .. وضع البعض أيديهم على أفواههم وهم يتمتمون فى توجس « خير يارب .. اللهم اجعله خير » ، كأنه حتما أن يعقب الأسى السعادة .. أو كأن النكد هو الضريبة التى يحصلها منهم الزمن .. مقابل استمتاعهم بكل لحظة سرور ! ..

لكن حمدا لله .. انتهت الليلة بشىء أدخل السعادة الى قلب الأستاذ مختار ، استأذن فى الذهاب الى دورة المياه .. لكنه وجد النظارة فى جيبه .. فعاد كى يضعها على المـائدة خشية وقوعها .. ليجد سمير وعروسـه يختلسان قبلة ! هو يطوقها .. وهى قد تعلقت فى عنقه بحب وسعادة ، تراجع سريعا دون أن يحسا به ، أبهجه هـذا المنظر مرتين .. الأولى لسعادة ابنه بحبه لعروسه وحبها له .. والثانية انه هو نفسه لم يوفق

فى المسعى الذى جـاء من أجله ، كيف كان سيحاسبه ضميره لمجرد حتى المحاولة فى التفريق بين هذين العصفورين المغردين ؟

عندما أوى الى فراشـه .. عـادت تلك القبلة تتراءى لخياله .. قدر أن مذاقها كان بالتأكيد أعذب من أى قبلة أخرى تبادلاها ، ذلك لأنهما كانا يختلسانها عند تركه صـالة المعيشة لدقائق ، وطبعا فى ظل « الحرية » اياها ، التى تحدث عنهـا سمير .. لا يظنهما كانا يختلسان القبلات .. حتى ولا قبل الزواج ، طبعا تقديره هـذا بناه عن خبرة ، كان شابا فى وقت ما .. وعرف الحب والسهر والعذاب ، تذكر أول قبلة لشريكة حياته .. والدة سمير ، اختلسها تحت سلم بيتها .. المجـاور لبيته ، قبلها بعد الزواج كثيرا .. لكن ظل شهد هـذه القبلة الخاطفة المخطوفة ـ من خلف ظهر الزمن ـ على شفتيه سنوات وسنوات ، جاشت عواطفه .. أحس كأنه ظمآن مضى عليـه مليون عام ينتظر جرعة ماء ، اشتاق ان يحتوى نعمت بين ذراعيه ويعيش معها فى قبلة ! لم يكن يظن أن يعود قلبـه فيدق مرة ثانية .. بنفس القوة والعـذوبة .. والحنين . لا يخجل أن يعترف لنفسه بهذا .. فالعواطف ليست وقفا على أى عمر . نام أخيرا والبسمة فوق ثغره ..

كمال قال الأستاذ مختار .. أو حكيم زمانه حسبما داعبه ابنه .. جاء يوم السفر . لبى رجاء سمير .. وربما رجاء قلبه

أيضـــا .. فأطال فترة الضيافة الى شهر كامل ، كان يقف فى الأسبوع الأخير منه .. أمام نتيجة الحائط .. ناظرا بهلع الى أوراقها تتساقط .. ولسان حالة يقول لها « مهلا أيتها الأيام » مع ذلك مر الشهر سريعا .. ليحل يوم الرحيل .

فى المطار عانق ابنه وقبله كثيرا ، وسالت دموعه أيضـــا كثيرا .. ثم كان لابد من الفراق ، أفلت ابنه من بين ذراعيـــه و .. وركب الطـــائرة ، ليهبط بعد ساعات مطار القاهرة .. وحده .. كما سافر ! قام برحلته هـــذه وهو يأمل أن يعيد تجميع أجزاء قلبه الى بعضها ، لكنه عـــاد وقد خلف ذلك الجزء من قلبه هنـــاك .. فى الغربة ، سار الى الأتوبيس وهو يحدث نفسه « منذ ثلاث ساعات كنت ألمس بيدى وصـــدرى جســـم سمير ، أرى بعينى وجهـــه وفوقه ابتسامة خـــلابة .. نفس ابتسامته منذ كان طفلا ، أسمع بأذنى حديثه .. بل وأســـمع دقات قلبه ، أشم بأنفى رائحة أنفاســـه ، أقبل بشفتى وجناته ، الآن بمجرد ان وطئت قدمى أرض المطـــار انتصبت حواجز المكان بينى وبينه لأعود من جديد أنتظر أن يحل الأحد الأول من الشهر .. لأنتظر مرة أخرى بشـــوق ولهفـــة رنين جرس التليفون ، لكنى لست غاضبا عليه .. وأشهد الله على ذلك ، لا ننجب كى تتحـــكم فى أبنائنـــا ! أو نفرض آراءنا عليهم ، والا .. تحول حبنا لهم الى حبال تخنقهم .. أو قيود تكبلهم !

تسلم جواز سفره من الضابط المختص .. وأخذ طريقه لخارج المطار ، عاد يحدث نفسه .

ـ بسبب تجارب عمرى الطويل .. وقراءاتى الكثيرة .. ظننت أن تقديراتى دائما صائبة ، لكننى أشعر الآن بخطئى فى شىء .. قلت انه لن يمر شهر على عودتى الا وأبدا استوحش سميرى العزيز وأتشوق اليه ، خطأ .. من الآن ولم يمض على فراقى له ساعات .. بدأت استوحشه .. وأتشوق لضمه الى صدرى من جديد ! أتشوق اليه رغم أنه معى دائما .. أحمله أينما ذهبت فى أعماق وجدانى ..

مسح دموعه .. لمعت نظراته .. وابتسم ابتسامة عريضة .. غمغم :

ـ الله رحيم كريم .. لا ينسانا قط ، انه دائما يعوضنا .. حتى فى المشاعر ! ..

واذا كان جزء من قلبه بعيدا عنه .. فبقية الأجزاء ما زالت من حوله .. اقبال وأحلام ، لابد انهما الآن فى انتظاره خارج المطار .. انهما بدورهما قد أوحشتاه .. خلال غيبته فى الخارج ، ويجب أن يهيىء نفسه لقبلات عديدة يتلقاها منهما ويطبعها على وجناتهما ، ثم نعمت .. شعاع الأمل الذى بزغ

فى سماء حياته .. فاضاء كافة جوانبها .. رغم حداثة عهدها فى قلبه .. الا أنها أصبحت تحتل منه جزءا كبيرا .. خاصا ..

تعرف موعد عودته .. عندما حادث أحلام آخر مرة .. كى يخبرها عن الموعد .. كانت هى عندها .. فى منزله .. منزلها .. قريبـا ان شـاء الله .. اذن فلاشـك هى الأخرى تنتظره .. وتترقب مكالمة منه .. همس :

ـ لن يطول انتظارك يا نعمت ، سوف أحدثك من غدى .. لكن .. لمـاذا انتظر للغد ؟

نظر فى ساعته .. ما زالت الحادية عشرة .. ولا يعتقد انها قد نامت بعد ، وحتى اذا كانت نامت .. فما أجمل أن يستيقظ الانسان على دعوة للحب .. والسعادة ..

ماذا تفعل بنا أيها الحب ؟

انهت سـهام عزف مقطوعتهـا الأولى .. فراح جميـع الحضور ـ فى الحفـل الأنيق ـ يصفقون لها ، أكثر المصفقين حماسا كان مدحت .. حتى راحت فريدة تنقل نظراتها بينه وبين سهام مندهشة ، سألته :

ـ أيعجبك عزفها الى هذا الحد ؟

ـ طبعا .. عازفة ممتازة ، الحقيقة اننى أحب الموسيقى جدا . أحبهـا لدرجة العبـادة ، انها غذاء للروح .. متعـة للوجدان .. بلسم يمسح الصدأ عن النفوس ..

سكت قليلا ثم أردف بقلق :

ـ وأنت يا فريدة .. ألا تحبين الموسيقى ؟ ..

هو يتمناها شريكة لحياته .. ويرى أنه من الأهمية بمكان أن تكون هوايات كل من الشريكين متقاربة .. لذلك كان مشفقا من الرد ، لكن فريدة لم ترد .. فسؤال كهذا .. يوجه اليها هى بالذات .. لم يكن يحتمل سوى رد من اثنين .. اما ضحكة كبيرة مقهقهة .. أو دموع غزيرة ساخنة ، ولم يكن المجال ليسمح بأى من هذين الردين ! ..

يالله .. هل تحب الموسيقى ؟ ! .. فريدة ؟ ! ، منذ متى عشقت الموسيقى ؟ ، انها لا تستطيع أن تحدد بالضبط .. ربما وهى تلميذة صغيرة .. تتسلل كل دقيقة تكون فيها خارج الفصل ـ الى حجرة الموسيقى لتستمع فى نشوة بالغة الى عزف أى مدرسة أو طالبة بها ، حتى اكتشفت أمرها مدرسة الموسيقى فضمتها الى كورال المدرسة .. لتكون أصغر طالبة به ، مع ذلك كانت تتقدم وتستوعب الدروس فى سرعة غريبة.. مؤكدة أن بداخلها فنانة مطبوعة ..

الحق كان لابد أن تكون فريدة فنانة .. وتكوينها نفسه مجموعة من الفنون .. وجهها الأسمر الجذاب .. تحيط به هالات من شعر غزير ناعم شديد السواد .. وعينان سوداوان ضاحكتان كأنهما أرجوحتان من نغم .. تحرسهما غابة من الرموش المشرعة .. تسبلهما فتسبح

كافة الكائنات اعجابا بقدرة الخالق على ابداع كل ذلك الجمال فى وجه واحد .. أو هى لوحة فنية تبارك من رسمها بهـذا السحر الفتان ، وأيضا من شكل جسدها كتمثال بديع انتظمت أعضاؤه فى تناسق أخـاذ ، ثم صـوتها الحنون الدافىء .. تتكلم فيتلفت من حولها حائرين .. وكأنهم يبحثون عن مكان البلابل التى تشدو بذلك اللحن الرقيق المتناغم ، فهل يمكن لمن تسير وسط مهرجان من الحسن والجمال .. الا أن تكون فنانة ؟ ..

كان هناك فى منزلها ثمة معزف ثمين .. لكنـه لم يكن يفتح أبدا ، لا والدها ولا والدتها كانا يهويان العزف ، الأمر الذى جعل فريدة تتساءل كثيرا بينها وبين نفسـها عن سبب وجوده ، حتى توجهت الى أمها يوما بالسؤال .. فردت بهزة من كتفيها :

ـ رفض والدى يوما شابا تقدم لخطبتى .. فما كان منه الا أن خطب فتاة أخرى من أسرة ثرية ، وظل يردد لكل من يقابله ان والد عروسه أرسـل يحضر معزفا من ألمـانيا ليكون ضمن جهاز عرسها اليه ، ورآها والدى مسألة كرامة فصمم على أن يحضر لى معزفا أغلى منه ـ ومن ألمـانيا أيضا ـ ضمن جهاز عرسى !! .. أيامها عاب عليـه الكثيرون هـذه النظرة المظهرية الغبية ! ..

وترد فريدة بحماس :

ـ بالعكس .. فانها كانت نظرة شفافة مستقبلية ، فهو لابد قد خمن أنه سيكون له فى يوم ما حفيدة فنانة .. تحتاج الى معزف فى منزلها لتستعيد عليه دروس الموسيقى التى تتلقاها فى مدرستها ! ..

رغم تقدم فريدة الكبير فى دراستها الموسيقية ـ أو ربما بسبب هذا التقدم ـ أحضر لها والدها مدرسة خاصة تأتى اليها فى المنزل ثلاث مرات فى الأسبوع .. كى تصقل موهبتها التى بدأت فى التفتح . كانت المدرسة شابة فى مقتبل العمر .. لا تزيد سنها على السادسة والعشرين .. أى لا تكبر فريدة بأكثر من سبعة أو ثمانية أعوام ، من أب مصرى وأم ايطالية أخذت عن الأول شهامة بنت البلد الأصيلة .. وعن الثانية الروح الفنية ..

ـ فنانة حتى النخاع ! ..

قال والد فريدة يثنى على مارى .. فأمنت الأم على كلامه :

ـ عدا ذلك فهى ملتزمة جدا فى عملها .. بل متفانية ، أحس بها أثناء درسها لفريدة وكأنها تذيب روحها على أطراف أناملها ! ..

وزادت فريدة : بل انني أحيانا أحس كما لو كانت أما لى أو أختا كبرى ، تريد أن تنقل الى كل ما تمكله من فن وبراعة .. عن حب لذاتى وليس بسبب أجر تتقاضاه منى ! ..

كان هذا شيئا جديدا بالنسبة لفريدة .. أن ترى شخصا يضعها فى بؤرة اهتماماته ، فى زماننا هـذا كل شخص مشغول بنفسه ومشكلاته وطموحاته . حتى زميلات الدراسـة ، طبعا الاخوة والوالدين يمكن أن يستثنوا من هـذه النرجسية .. لكن بالنسبة لها أين هم ؟ ، وحيدة هى لا اخوة ولا أخوات أما الوالد فكان دائما على سفر .. يعود من احدى رحلاته ليجهز نفسه لرحلة أخرى ، والدتها أيضا مشغولة باستمرار بين المستشفى والجامعة وعيادتها الخاصـة . لذلك تعلقت بمارى وأحبتها كل الحب .. اعتبرتها الأخت والصديقة والزميلة و .. كل شىء ، معهـا تنطلق ضحكاتها مجلجلة فى الفيـلا الكبيرة الساكنة ، فتحت لها قلبها الصغير وبدأت تحدثها عن أمنياتها .. أن تسافر للخارج كى تستزيد من دراستها وتعود فنانة كبيرة .. ملء السمع والأبصار ، وشجعتها مارى .. أكدت لها أنها فعلا موهوبـة .. وأنها اذا ما اسـتمرت يمـكن أن تصبح ذات شأن كبير ..

انتظمت دروس العزف ما يقرب من العامين .. كبرت فيهما كل من فريدة ومارى وجميع الناس بقدر عامين طبعا ،

لكن حب فريدة لمـــارى نما بقدر عشرات الأعوام ! .. أصبحت تكاد لا تستغنى عنها ، لكن الأخيرة تفاجئها ذات يوم بقرار مذهـــل :

ـــ أرى أنك قد اتقنت العزف بحيث كدت تتفوقين على ، من ثم لم تعد بك حاجة الى دروسى .. فليكن درس اليوم آخر درس لى ؟ .

وتشهق فريدة باستنكار :

ـــ مستحيل .. لا يمكن أن تتركينى ..

ـــ بل لابد أن أفعل ، لم يعد لدى ما أستطيع أن أضيفه لمـــا عندك ..

ـــ لكنى اذا تركت العزف ستتقلص موهبتى .

ـــ ومن قال تتركيه ؟ .. لابد من التدريب المتواصل .. لكن وحدك ، كما فعلت تقريبـــا طوال الأسبوعين الأخيرين .. !ننى أجلس واستمع اليك فلا أجد أى خطأ أصححه لك أو نقص أنبهك اليه ، أى لم يعد لوجودى معك من ضرورة ..

ـــ بل توجد ضرورة قصوى .. اننى استمد من وجودك طاقة فنيـــة .. ابذل كل امكاناتى وأسعى كى أحوز اعجابك وأثبت لك مدى تقدمى ، وربما لو كنت وحدى لا أهتم كل هذا الاهتمام ! ..

وتضحك مارى : كل هـذا لا يبرر النقود التى آخذها منك ، اننى لن أنقطع عنك .. لقد أصبحنا صديقتين ولسنا مجرد مدرسـة وتلميذة ، لكننى لن آخذ أجرا بعد اليوم ..

ـ غير معقول .. فانك تضيعين معى وقتا تستطيعين فيه اعطاء دروس لطالبة أخرى .. ثم انك ..

قاطعتها :ولا كلمة .. والا فلن أحضر أبدا ، كنت آخذ نقودا مقابل شىء أعلمك اياه .. فهل تقبلين لى آن آخذ نقودا مقابل الصـداقة ؟ .. مقابل مشاعر وأحاسيس أسعد بها بنفس القدر الذى تسعدين بها أنت ؟ ..

صممت مارى على رأيها ورفضت أن تتزحزح عنه خطوة واحـدة ، وان لم تستمر هـذه الزيارات الحبية لأكثر من شهرين ..

ذات يوم مشئوم فتحت فريدة جريدة الصـباح لتجد « مانشيتا » على عمودين « مصرع مدرسة موسيقى فى شقتها بالهرم » ، وتحت المانشيت صـورة مكبرة لجثة مارى المسكينة ملقاة وسط بركة من الدماء .. مفتوحة العينين .. وقد بدت فيهما نظرات مرعوبة ، وتصرخ فريدة صرخة مروعة .. قبل أن يغمى عليها . فى فراشها راحت ترتعش . كالمحمومة .. وهى تهـذى :

ـ كيف حدث هـذا ؟ .. لقد كانت الرقـة والبراءة بعينها .. كيف استطاع قلب انسان أن يطاوعه على اغتيـال البراءة .. الحب .. الطيبة .. والتعفف ؟ ، لكن أهو انسان حقـا ؟ ، ما فعل ذلك لابد انه وحش من الغـابة .. بل حتى الوحوش لا تهاجم شخصا وادعا مسالمـا !! ..

الأسابيع التالية فى حياة فريدة كانت عصبية جدا ، دائمة البكاء . دائمة السرحان ، لا تكاد تتبلغ الا بلقيمات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، هزل جسدها .. اصفر وجهها .. الحزن أضاع البريق من عينيها وتركهما قطعتين من زجاج ، أصبحت تسير فى البيت كما شبح ، وكأن الحياة قد أعلنت العصيان .. توقفت ، حتى قلقت عليها الأسرة .. فراحت أمها تفعل المستحيل كى تخفف عنها .

مع الأيام ومحاولات الأم والصديقات .. بدأت فريدة تتخفف من أحزانها تدريجيا ، انتظمت فى الدراسة .. وأصبحت تتناول طعامها المعتاد .. أى تسترد حياتها الطبيعية .. أو الجانب العملى منها ، حيث افتقدت تماما جانب البهجة والمرح المعروف عنهـا .

عندما رأت أمها ذلك طلبت منها أن تعاود تدريباتها على العزف ، لكنها ما أن جلست أمام المعزف حتى تبدت أمامها صورة

مارى جالسة قبالتها .. بابتسامتها الرقيقة .. تكاد تحتويها داخل عينيها ، وقد تداخلت فيها وامتزجت بها صورتها قتيلة وسط بركة الدمـاء .. ونظرات الرعب تطـل من نفس العينين ، فما أحست الا وهى تصرخ .. وتسقط فى اغماءة جديدة ! ..

بعدها تكررت هـذه الحـادثة ثلاث مرات .. كلمـا اقتربت من المعـزف .. وهمت باللعب عليـه .. ترى نفس الصورتين الممتزجتين ، كأنها أمام شاشة تليفزيون يستخدم فى ارساله بعض الأجهزة الالكترونية المتقدمة ! ، لذلك قررت الأم ألا تعاود العزف ثانيـة . وكما اسدلت على المعزف ـ المتشح برائحـة الموت ـ غطـاءه المخملى الثقيـل .. تمنت لو أسدلت ابنتها بدورها الستار على هوايتهـا للموسـيقى نهائيـا .

الزمن لا يتوقف لأى سبب من الأسباب .. فالحيـاة لابد أن تسير والكل يسير معها مهما كانت مشاعره ، سعيدة .. حزينة .. مريرة .. حنونة الخ الخ .

قبل نهاية العام عاد مدحت من الخارج بعد أربعة أعوام قضاها فى الدراسة .. ابن أقرب الجيران لأسرة فريدة ، عندما يراها يدهش .. لقد تركها طفلة وعاد ليجدها تتفجر بالأنوثة ، وقصة الصداقة والتفاهم والانسجـام بينهمـا بدأت تكتمـل

فصولا .. وان اتخذت مظهرا جديدا فبدلا من المناوشات اللاذعة الصاخبة تبودلت النظرات والعبارات الرقيقة الخافتة ، انه الحب الـ .. لا .. لا داعى لأية صفات يمكن أن تدل على قوته أو جبروته .. فهو الحب وكفى ، وعلى جميع المشاعر الأخرى .. سواء ما كان منها صورة قريبة منه كالصداقة .. أو صورة متعارضة معه كالعداوة .. على كل هذه المشاعر أن تخلى له الطريق ؟ !

وبدأت فريدة تتألق .. تتوهج .. تخلق من جديد ، بعد أن أصبح القادم الجديد هو كل العالم .. عالمها هى على الأقل، وهى التى ظنت فى يوم من الأيام انها لم تعد قادرة على حمل المشاعر الكبيرة .

لم يتكلم مدحت فى أية رسميات .. ولا فريدة بالطبع ، لكن أمر ارتباطهما أصبح واضحا لكل ذى عينين ، وباركت الأسرتان هـذا الارتباط المرتقب .. الآتى مع الأيام ..

عندما حقق رب الأسرة هذا المشروع الضخم الذى كان يحلم به من زمن .. قرر اقامة حفل كبير ابتهاجا به ، فى ذلك الحفل الرائع بكل المقاييس اقترب مدحت من المعزف المغطى دائما وأبدا وباستمرار .. ورفع يديه قائلا بلهجته الساخرة :

ـ الفاتحة لمقام سيدى الشيخ « بيانو » !

كان يرى انه اذا لم يكن يستعمل كل يوم .. فعلى الأقل فى الحفلات .. وهذا أضعف الايمان ، ضج الجميع بالضحك .. واستجابت لسخريته المتحدية سهام .. احدى قريبات الأسرة :

ـ هل تحب أن تسمع شيئا ؟ .

ـ أقبل يدك !

ورفعت الغطاء ليهتف مدحت :

ـ يالله .. انه معزف قيم جدا ..

عندما أنهت سهام عزفها كان مدحت أكثر الحضور حماسا فى التصفيق لها .. حتى دهشت فريدة وسألته ذلك السؤال ، لتكتشف من رده مدى حبه للموسيقى ، وتمنت لو أسمعته عزفها .. ان سهام بالنسبة اليها مبتدئة تلهو ، فماذا عساه سيقول عنها هى ! ، فى سؤاله لها « الا تحبين الموسيقى ؟ » كان يكمن أمل .. بل رجاء .. أن يكون الرد بالايجاب ، واذا كان مجرد الايجاب يسعده .. فما مدى سعادته اذا لمس تفوقها الكبير وموهبتها العظمى فى العزف ؟ ، لكنها ترددت .. خشيت أن تقترب من المعزف فترى صورة مارى .. ويحدث لها ما حدث قبلا .. من ثم تتسبب فى افساد الحفل ، وحتى اذا لم يحدث ذلك فهل يا ترى ستستطيع أن تعزف بنفس مستواها

القديم .. وقد مرت عليهـا شهور وشهور لم تلمس أناملهـا أصابع المعزف ؟ ..

لكن ترددها لم يطل ، هل كانت رغبتها فى اسعاد مدحت والفوز باعجابه أكبر من كل توجس ؟ .. أم ان عينيه أرسلتا أشعة كأنها خيوط غير منظورة راحت تحركها صوب المعزف .. كما لو كانت دمية من الخشب ؟ ..

فى بداية عزفها بدا اللحن مهزوزا بعض الشىء .. لكن لم تمض دقائق حتى امتلكت ناصية الاجادة .. لتبهر الموجودين بأجمل عزف أدته فى حياتها .. الأمر الذى جعل مدحت يقف أول الأمر وقد فغر فاه مذهولا ، ثم يسبح ويحلق مع اللحن الأثيرى الرائع ! ..

أغرورقت عينا الأم .. وهدأ قلبها مما اعتراه من قلق وهى تتمتم :

ـ ماذا تفعل بنا أيهـا الحب ؟ ، بسببك انقطعت فريدة عن العزف .. وبسببك عادت اليه ، صدقت أمثال أجدادنا القدماء « وداوها بالتى كانت هى الداء ! » .

ضيفـــة الفجـــر

لم تتحرك شعرة واحدة فى رأسه .. لكثرة ما ردد له والده هـــذه الكلمـــات لم تعد تؤثر فيه ، كان يختتم بها كل موضوع يحدثه فيه .. كأنها النشيد القومى الذى يعزف دائما أبدا فى نهاية كل حفل أو اجتماع .. ! بل أحيانا لا تكون ختاما لأى موضـــوع .. لأنها تكون هى كل الموضوع .. !

فى أول الأمر كان يحس كأن هذه الكلمات نصـــال حادة شحذت جيدا ثم حميت على نار متقدة الأوار لتغمس ـ قبل أن تغمد داخل لحمـــه ـ فى ســـموم ناقعات ، لا .. ليس أول الأمر .. فى منتصفه تقريبا .. تذكر ساعتها .. أول الأمر لم

يستأ كثيرا أو حتى يأبه .. ربما كان الوالد يحمسه كى يصل الى الأفضل ، وحتى اذا لم يكن ذلك هو القصد فهى على أسوأ الفروض تأنيب على خطأ ما ، ثم تكررت الكلمات .. وتكررت .. وبدأ يتضايق .. يتألم .. يتمرر ، حتى جاء وقت أصبحت هذه الكلمات ترج كيانه رجا .. كأنها سيال من الكهرباء لمس فيه عصبا مكشوفا .. ! بعدها تدريجيا بدأ ألمه يقل .. حتى لم يعد يشعر بشيء .. كما القوس .. يبدأ صغيرا .. ثم يكبر .. ثم يعود صغيرا من جديد ! ..

كيف حدث ذلك ؟ .. هل صدئت السهام ؟ .. هل ثلمت النصال ؟ .. هل ـ لكثرة الطعنات ـ ماتت مشاعره ؟ .. نعم ماتت .. تماما ، لم تعد تحس بأى شيء .. لكنه مع ذلك مستمر فى الطعن .. غير آبه بالمثل الذى يقول ان الضرب فى الموتى حرام .. وهل هو يعرف الحلال من الحرام ؟ .. والا .. فكيف يحمله وزر ما حدث لأمه ؟ .. وكأنه هو القدر الذى فجعه فيها .. أول مرة يسمع ان الذى يرسب فى مادة واحدة فى امتحان ما يصبح وكأنه متهم بالقتل ! . كان بالامكان تعويض هذا الرسوب فى الدور الثانى .. فلماذا فعلت والدته كل هذا ؟ .. وكأن رسوبه نهاية العالم ؟ !

لقد انهارت وبكت .. رفضت أن تصدق .. شريف كان يذاكر بحماس وجدية .. وكم اختبرته بنفسها وراجعت كراسات

الواجب .. فى اللغة الانجليزية بالذات كان متفوقا تماما .. لابد هنـــاك شيء ما .. خطأ ما ، أما عن شيء ما فهذا جائز .. وهناك أكثر من احتمال .. ربما كان يومها مريضـــا .. التهبت لوزتاه الدائمتا الالتهاب .. أو أى مرض آخر ، ربما ارتبك أو خانته أعصابه .. ربما وربما وربما .. لكنها رجحت الاحتمال الآخر .. خطأ ما « ولن أسكت عليه .. نعم .. سأذهب الى مدرســته .. وأطرق أبواب الجميــع .. لابد أن أجعــلهم يستخرجون أوراقه ويعيدون الجمــع .. وحتى التصحيح .. فالنتيجة غير معقولة بالمرة » .

وركبت سيارتها .. كما ركبتها من قبل مئات المرات .. لكنها هذه المرة لم تعد .. أو عادت محمولة على أذرع بعض الناس . هل هــذا معقول ! .. هذا القلب الكبير المليء بالحب والحنان يقف هكذا فى لحظــة ؟ .. وكأنه ســاعة سهى عن صاحبها أن يملأها ؟ .. كاد زوجها وابنها يجنان .. لمــاذا هى يارب من بين كل هذه الآلاف ؟ .. حادث سيارة .. يحدث مثله كل يوم عشرات المرات .. وربما مئات المرات .. فى مصر والعالم كله .. وكان يمكن أن يحدث لها هى نفسها أيضــا فى أى يوم تكون ذاهبة فيه الى عملهــا أو عائدة منه .. لكن قدره ــ وليس قدرها هى ــ أن يحدث ذلك وهى ذاهبــة الى مدرسته ! ، هل لأنها كانت غاضبة وفى أشد حالات الانفعال

لرسوبه ؟ .. هى عصبية .. وذلك أمر معروف عنها .. وأكثر من مرة غادرت عملها منفعلة لتصرف أحد الرؤساء أو احدى الزميلات .. ربما أكثر من انفعالها فى ذلك اليوم المشئوم .. لدرجة أن هـذا الانفعال كان يستمر معها حتى تعود للمنزل .. ويسألونها .. وتحكى ما وقع معها من تصرفات رأتها سخيفة أو ماسـة بها .. مع ذلك كانت تصـل لمنزلها بالسلامة .. دون أى حادث ، لكن حظه التعس جعل ذلك الحادث لا يقع الا يوم ظهور نتيجة امتحانه .. وهى منفعلة بسبب رسوبه .. وفى طريقها الى مدرسـته .. ليظل والده يتهمـه بأنه السبب « وفرنا لك كل الأسباب .. وهيأنا لك أفضـل الظـروف لتتفوق .. لكنك رسبت .. لتدفع أمك حياتها ثمن عدم تحملك المسئولية » !!

أكثر من مرة ــ وبأكثر من أسلوب وجه له هـذا الاتهام ، وحتى دون أن يعبر عن ذلك بالكلمات .. كان يقرأ الاتهـام فى عينيه .. كأنهما قد انبسطتا أمامه عريضتى دعوى سطرت فيهما التهمـة وملابساتها ، والحكم وحيثياته ! ، وكأنمـا لم تكن تكفيه أحزانه لفقد أمه فيضـاف اليها شعور الذنب ، وأى أحزان .. فمن لأى طفل فى الحياة بعد الأم ؟ .. الصدر الحنون ، ست الجبـايب كما غنوا لها على وجه العموم .. أما فى حالة شريف على وجه الخصـوص فكانت أمه له كل

شيء .. نبع الحنان الصافى الذى ينهل منه .. أشـعة الدفء التى تحيطه .. نور الأمل الذى على هـداه يسير . ما تكاد تواجهه أية متاعب أو مشاكل ويلقاها حتى يصبح كل شيء على ما يرام ! لم تكن تحتويه بين ذراعيها فقط .. لكن داخـل عينيها أيضا ..

الغريب أنه بعد ذهابها ينظر الى مشاكله ومتاعبه القديمة ويكاد يضحك لتفاهتها ! .. مصروفه نفد .. كراسته ضاعت .. أحد الزمـلاء ضايقه الخ الخ ، بدأت متاعبـه الحقيقية بعد رحيلها .. أو ربما بسبب ذلك الرحيل .. كم أصبح فى حاجة اليها .. أكثر من كل احتياجه طوال حياتها ولكن ... غابت الشمس فى الوقت الذى اشتد فيه الصقيع ! ..

يدهش حين ينظر اليه والده على أنه تسبب فى خسـارة شريكة حياته وماذا عن خسارته هو ؟ .. حياته وليس جزءا منها مثله ، وكأنى به يوم فقد أمه فقد أباه أيضا معها .. بعد أن حوله حزنه عليهـا الى انسـان غريب عنه . كان المتوقع أن يضاعف حنانه له ليعوضه فقد أمه .. أو على الأقل يضم قلبه لقلبه ربما داوى أحد الجرحين الجرح الآخر ..

كان أحيانا يلتمس له العذر .. بقدر ما كانت له كانت لأبيه أيضا .. النسمة التى تلطف هجير الحيـاة .. مصيبته كانت رهيبة .. ربما عجزت قدرته عن تحملها ففاضت به ..

على من بجواره ، كانوا جميعا أسرة سعيدة .. على كثرة ما رأى حوله من أسر صديقة أو قريبة أو جـارة .. لم ير لمثل سعادتهم سعادة .. ثلاثتهم أصـدقاء أكثر منهم زوج وزوجة أو أب وأم وابن ، كل منهم يعرف ما يريده الآخـران منه .. ويقدمـه بكل تفان .. ربما قبيل ان ينطقا به .

هل لهذا كانت الضربة قاصمة .. هل تكره الأقـدار سعادة البشر ؟ .. ولمـاذا ؟ .. لا .. ليس الأمر كذلك .. كقوانين الحكم فى أى نظـام .. كل من يحقق ربحا يدفع عنه ضريبة ، الحكومة الكبرى .. القدر .. يتقاضى ضريبة الآلام عن كل سعادة يحصل عليهـا انسـان .. هنـاك من يدفعها بالتقسيط ، كان يرثى لأسر أخرى تدب بين أفرادها المشاكل .. أو يعانون أزمات مادية .. هؤلاء تترفق بهم الأقدار .. تتقاضى ضريبتها يوما بيوم .. أو شهرا بشهر .. أو حتى عاما بعام ، هم .. لأعوام طويلة لم يدفعوا شيئا .. ظنوا الزمن يجاملهم عندما أغدق عليهم كل شىء .. الى حين ، فجـأة غدر .. قلب لهم ظهر المجن .. تقاضى ضريبته ـ وكانوا يظنونه نسى ذلك ـ مرة واحدة .. فى ثوان .. أو ربما ثانيـة واحدة .. ويمكن أن يكون جزءا من الثانية ، ليتهم اختاروا الدفع مقسطا ولكن.. هل يختار الانسان لنفسه .. أم تختار له الأقدار ؟

ترى .. من الذى دفع تلك الضريبة الباهظة ؟ .. هى ..

التى فقدت حياتها ؟ .. أم هما اللذان حرما منها ؟ .. الأرجح الأخيران .. امتد الحادث كسحابة قاتمة ليظلل كل حياتهما .. من أكبر جانب فيها حتى أصغر جزىء منها .. حديقة دنياهم أصبحت خرابة ، ورودها تحولت الى صبار وبلابلهـا أفرخت البوم ، ثم كان أسـوأ من الحـادث نفسه ما تمخض عنه من نتائج وما نبتت له من ذيول .. خاصـة ما طرأ على علاقة الأب بابنه .. يقلب شريف فى ألبومه ليرى صوره مع والده فى أوضاع تظهر حنو عاطفة الأبوة بوضـوح ، هل كل ذلك كان مجرد بوزات ؟ .. غير معقول .. فما من مرة حـاول ـ هروبـا من قسوة الحاضر ـ استرجاع بعض مواقف رقة أمه وحنانها عليه الا وألفى والده متواجدا فى الصـورة أيضا .. يشارك الأم فى سخاء عطائها لحبيبهما معا .. شريف ، أين كل ذلك الحب ؟ .. كأنه وضع مع الأم فى لحد واحد .. !

أصبح عصبيا .. التمس شريف له العذر أول الأمر .. الصدمة ليست هينة .. حاول أن يهدهد ويطمئن مخاوفه .. الزمن أفضل دواء للنسيان .. ومع تتابع جرعاته اليوميـة ستخف عصبيته ، لكن العكس ما حدث .. زادت ، حديثه كله أصبح نقدا وتوبيخا لاذعا .. يخطىء شريف .. نعم .. كثيرا ، لكن ليس بهـذه الطريقـة أبدا يـكون النصح والتقويم .. وليس بهـذا القـدر أيضـا ، لم يكن يمر يـوم دون أن

يؤنبه .. أكثر من مرة . وكأنه لا يفعل شيئا طوال نهاره سوى أن يخطىء .. تصرفاته كلها سلسلة أخطاء متصلة متواصلة .. متكررة متداخلة .. حتى بات يخشى أن يأتى يوم يصبح فيه تنفسه محسوبا عليه .. ليس بالنسبة لوالده فقط .. وكل الناس أيضا ، بل وصل الى أنه أحيانا يتخيل أن جميع الأشياء قد تحولت الى كائنات متوحشة تريد افتراسه ! ..

عندما يدافع عن نفسه تجاه نقد يوجهه له أبوه .. كان الأخير كثيرا ما يرى فى الدفاع نفسه خطأ جديدا يضاف الى رصيد أخطائه الذى راح يتضخم ويتضخم ، بعد شهور بدأ ينتهج سياسة جديدة .. لا يرد على الاتهامات والنقد والتقريع .. حتى لا تصبح ردوده بمثابة الفوائد التى تضاف الى الدين الأصلى فتضاعفه ! ، لكن حتى هذه الطريقة لم تعجب الأب .. ظهر انها تثيره أكثر :

ـ انطق .. أرى شفتيك تتحركان .. رغم حركتهما لا تخرج من بينهما الكلمات .. لتكن عندك شجاعة أدبية .. قل ما تريد ..

لكنه لا يفعل .. تظل شفتاه تتحركان دونما صوت .. فبصرخ فيه :

ـ ألا تريد أن ترد ؟ .. جبان .. جبان ..

من قال انه ممتنع عن الرد ؟ .. انه يرد .. لكنـه رد داخلى لا يسمعه أحد .. كان ذلك يفيده .. رغم ان عـدم الرد يضايق .. ولو أن شخصا أراد أن يسحق انسانا ما غيظا وكمدا .. فما عليه الا أن يلومه وينتقده ثم يمنعه من الرد ! لكن شريف فى الوقت نفسه لا يترك لوالده الفرصـة فى أن يلقى بقصبته داخل رده .. حتى يصطاد له أخيرا غلطة .. ربما كانت أكبر من الغلطة الأولى التى بسببها • بدأ حديثه ـ أو تأنيبه ـ له ! ، لدرجة أنه ـ شريف ـ كان أحيانا يتصور أن الغلطة الأولى الأساسية .. ليست أكثر من فتح باب للغلطة الأهم .. أو طبق الأوردفر الذى يمهد للطبق الرئيسى ! ..

وكما تزود الطبيعة أى حيوان أو حتى حشرة بسـلاح يواجه به ما يصادفه من أخطار أو ما ينصب له من فخـاخ .. فقد ألهمته الى هذه الوسيلة .. وقدرته أيضا عليها .. فليس كل شخص ـ خاصـة اذا كان فى هـذه السـن الصغيرة ـ بمستطيع أن يسمع ما يوجه اليه دون أن يجاهر بما يكون لديه من دفاع ، فعندما يصيح فيه « جبان » يرد داخل نفسه « أنت السبب .. المعادلة تقول انه وراء كل صبى جبان أب قاس ».. عندما يقول له « لولا رسـوبك يومها ما خرجت » يرد بدون صوت « بل كان لابد أن تخرج .. لقد كانت الساعة تقترب من الثانية وكان الأمل فى وجود أحد بالمدرسة وقتها ضئيلا ..

لكنها خرجت .. لأنها كانت على موعد لا يستطيع انسان أن يخلفه قط » ، وعندما يردد بأنه غير أهل لتحمل المسئولية يرد هو فى صمت « مازلت ناقما على بسبب حادث أمى .. وكأنك أنت الذى اضرت أكثر .. مع أنك بسهولة .. أو حتى لنفترض بصعوبة .. وجدت ـ ولما يمض على رحيلها عامان ـ من حلت محلها كزوجة لك ، أنا .. هل وجدت ـ أو سأجد ولو بعد ألف عام ـ أما أخرى » ؟

لا أحد يدرى كيف يتصرف رجل مثقف كالأستاذ شاكر بهذه الطريقة .. ولولا التربية الدينية القويمة .. التى غرستها والدة شريف فى نفسه من صغره .. لما وقف به الأمر عند حد عدم الشعور بالمسئولية واللامبالاة أو اللا انتماء .. وانما لتعدته الى ما هو أخطر من ذلك .. مثل الذى كاد يحدث فى شهر رمضان من عام مضى .. عاد شريف للمنزل فى أحد أيامه بعد ماتش كرة لعبه مع لفيف من أصدقائه .. وهو فى شدة العطش .. أحس أن لسانه كعود من الحطب داخل حلقه .. وقدر أنه لن يستطيع الاستمرار فى صيامه حتى المغرب .. الذى كان باقيا على أذانه ساعات عديدة ، وفكر أنه يستطيع تعويض هذا اليوم .. وأن الله المطلع على السرائر سيقدر عدم تحمله ويقبل عذره .. لذلك .. وبتلقائية ابن الثالثة عشرة .. فتح الثلاجة وأخرج زجاجة ماء .. رفعها

الى فمه .. وما يدرى الا وصفعة تنزل على خده لتطير الزجاجة بعيدا .. ووقف مذهولا وأبوه يهدر :

ـ أتفطر فى رمضـان ؟ ! .. حتى دينـك لا تسـتطيع المحافظة عليه ؟

فى اليوم التالى تسحر كالمعتاد .. وحوالى الضحى دخل الحمام وأغلق عليه البـاب .. ملأ يده بالمـاء ثم رفعهـا الى فمه ، لم ينزل جوفه سـوى نقاط معدودات ، لكنه راح يتمشى أمام والده وهو سـعيد .. لقد فعـل ما يراه والده خطـأ فاحشا ، مع ذلك لا يستطيع أن يؤنبه ! ، لكنه بعد ساعات بدأ يشعر بالندم وراح يستغفر الله ويعاهده على ألا يعود لمثلها .

رغم ألم شريف أن يرى امرأة أخرى تحل محل أمه .. الا أنه سر عند زواج والده .. فربما أسعدته الزوجة الجديدة الى الدرجة التى تنسيه فجيعته فى منيرة هانم .. وبالتـالى المتسبب ـ ظلما ـ فيها ، لكنه مع الأسف لم يغير كثيرا من نظرته اليه .. ربما أصبح صوته ـ فى مؤاخذاته له ـ أقل حدة .. لكن جوهر الحديث ظل واحدا .. ! ، الغريب أن هذه الزوجة .. حاولت ـ من بداية دخولها المنزل ـ أن تكيد لشريف عند والده .. رغم أنه من أول الحـال يعامله بكثير من الشدة .. لكن يبدو أنها كانت تفعل ذلك من منطلق حرصها

على القيام بواجبات مركزها كزوجة أب تقليدية على أحسن وجـه !!

وجاءت الأجازة فاتخذت مكائـدها له منحى آخر .. دائما تردد :

ـ يأكل ويشرب ويتنزه وينـام .. دونمـا شـغلة ولا مشغلة .. بينما أنت تكاد تقع من فرط الارهاق .. ليس طفلا بعد .. انه فى السابعة عشرة .. مثله عندنا فى البلد يتزوج ويفتح بيتا .. لمـاذا لا يذهب بالسيارة الى الميكانيكى الذى لا يبعد عن البيت أكثر من عشرة أمتار ؟ .. لمـاذا لا يقف أمام مهندس التليفزيون أثناء اصلاحه بدلا من عودتك أنت من عملك خصيصا لهذا الغرض ؟ .. لمـاذا لا يقوم بتوصيل بعض الأوراق لأحد العملاء ؟ ..

لكن الأب كان يرفض بشدة .. ويزيد ساخرا :

ـ أترينني مستغنيا عن الصفقة ؟ .. هذه الأوراق يمكن أن تضيع منه .. تتلف .. تسرق .. تحرق .. انه لا يضـع يده فى شيء الا أفسده ! ..

مرة .. اثنتين .. ثلاثا .. خمسا ، بعدها كفت ـ كما كف هو قبلها بزمن بعيد ـ عن هذه الاقتراحات ، واكتفت بأن ترشقه بكلمة لاذعة بين الحين والحين !

فى ذلك اليوم نادى الأستاذ شاكر ولده ليخبره بأنه مسافر الى الاسكندرية للاشراف على شحن بعض البضائع .. ثم أردف :

ـ انتظر تلكسا من ايطاليا .. وأريدك أن تنتظر فى المكتب لتعرف فقط موعد ارسال البضاعة .

ـ آسف يا أبى .. لقد تواعدت مع بعض الأصدقاء على الذهاب الى السينما .

ـ سينما .. ؟ ! سينما ؟ ! .. أنا المخطىء عندما أطلب منك القيام بمهمة ..

رغم اتباعه سياسة الصمت قاطعه هذه المرة ..

ـ وهل هذه مهمة ؟ .. يستطيع .. ليس أى موظف لديك .. بل أى فراش فى المكتب أن يقوم بها .

عندئذ قال الأب ـ وكأنه يقرر حقيقة فى مثل سطوع شمس أسوان .. ظهر يوم من شهر أغسطس .. حتى ان أحدا لا يمكنه أبدا أن ينكرها أو يجادل فيها ـ تلك الكلمات التى لم تعد تحرك فيه شعرة : ـ انك لن تفلح فى شىء أبدا .. أى شىء .. لست أهلا لتحمل أية مسئولية .. على الاطلاق !

انصرف الأستاذ شاكر وبقى شريف وحده يتطلع من النافذة .. كانت السماء تمطر قطرات صغيرة كأنها دموع

الطبيعة تذرفها نيابة عنه .. دقائق كثيرة مرت عليه .. حتى تنبه أخيرا فاستدار عن النافذة والسماء .. ودموع التماسيح التى تسفحها ..

ذهب الى حجرته وبدأ يعد ملابسه استعدادا لسهرة الليلة .. فى تمام الثامنة .. كان قد أتم ارتداء ملابسه ولم يبق الا وضع النظارة فى جيبه .. حين سمع صرخة شقت هدوء الليل .. أدرك أن مصدر الصرخة غرفة والده .. فاندفع لا يلوى على شىء .. ليجد زوجة أبيه ملقاة على الأرض وهى تنزف . ارتقت كرسيا لتحضر شيئا من الرف العلوى للدولاب فاختل توازنها وسقطت بالكرسى . كانت حاملا فى بداية الشهر التاسع .. ومن ثم فان السقطة بالنسبة لها أمر غير هين ..

فجأة وجد نفسه ينفض رداء اللامبالاة ويسرع بمعاونة زوجة أبيه حتى السيارة .. التى قادها بنفسه الى المستشفى ، رغم انه كان يقود بمهارة وتمكن الا أن أحد أمناء الشرطة أوقفه .. قدم له رخصة السيارة ورخصة القيادة الخاصة بوالده .. ثم بطاقته الشخصية .. وبكل أدب أفهمه اضطراره للقيادة لخطورة الحالة .. فسمح له بالسير دون أن يسجل له مخالفة .. بل وعرض عليه أن يذهب معه اذا كان فى ذلك معاونة له ! ..

فى المستشفى صرح الطبيب بأنها حالة ولادة مبكرة .. فقط يحتاج لبعض الحقن .. وما أسرع ما ذهب لأقرب صيدلية وعاد بها .. بعدها طلبت الحكيمات ملابس للوالدة والمولود .. فانطلق أيضا الى المنزل لاحضارها .. الخ الخ .. طوال أربع ساعات وهو يذهب ويجىء ملبيا كافة الطلبات .. حتى تمت الولادة بسلام وجاءت أخته الصغيرة..« ضيفة الفجر ».. الى الدنيا .. حملها بحب وهو يحس كما لو أنه شارك أمها معاناة وضعها .. !

عندما أصبح الصباح .. كانت السماء لا تزال ملبدة بالغيوم .. قبل الظهر نجحت الشمس فى الافلات من ذلك الحصار الذى ضربته حولها السحب .. مع مجىء الشمس جاء الأب .. علم من الخادمة بما حدث فأسرع الى المستشفى .. وهو يقبل طفلته . دخل الطبيب .. قال فى سياق الحديث ان شريف أظهر رجولة مبكرة .. وأفاض فى ذلك :

ـ وفى اعتقادى انك لو كنت موجودا بنفسك لما قمت بأكثر ـ ولو خردلة ـ مما قام به هو ، الحق لك أن تفخر به .. لقد أثبت بما لا يدع مجالا لأى شك أنه شاب .. بل رجل ـ يتحمل المسئولية .. ويمكن الركون له والاعتماد عليه..

بين الجملة والجملة كانت الوالدة تؤمن على كلام الطبيب .. بل وتزيد عليه ، هل عن أصالة جعلتها تقدر صنيعه

معها .. أم حاصرتها كلمات الطبيب فلم تجد من تأكيدها بدا ؟ .. لا أحد يدرى ، بعد انصراف الطبيب نادى الأستاذ شاكر ولده ليجلس بجواره .. جاء .. رافعا رأسه .. ينظر لمحدثه .. وليس الى الأرض .. كما اعتاد ، مد الأب ذراعه وطوق به كتف شريف .. قال وهو يربت عليه :

ـ صدق الدكتور عامر .. فالرجل لا يخلف الا رجلا مثله .. بعد كلامه ثبت أننى كنت مخطئا .. اعترف واعتذر .. ربما كانت المرة الأولى التى يسعد فيها انسان عندما يكتشف انه مخطىء خطأ كبيرا .. سعادة لها مذاق خاص .. سعادة من استعاد شيئا ـ أو شخصا ـ فقده منذ زمن بعيد .

أهم المستندات

لم يكن يظن قط ان تغدو النقود سببا للسعادة أو التعاسة : لم يتصور أبدا أن امتلاء يده بالمال يمكن أن يسعده •• أو يمكن أن يشقيه خلوها منه ! ، طيلة عمره يهتم بالمعنويات •• ولا يقيم وزنا للماديات ، عن هذا الأمر جرت دائما مناقشات عديدة ساخنة بينه وبين زميله عباس •• صال فيها وجال •• وساق الكلمات الكبيرة والحكم الرنانة ، التى يبدو أن رنينها قد حال بينه وبين سماع الضحكات الساخرة•• على شفاه الزمن ! ، انهى الأستاذ عباس مناقشته يوما بسخرية لاذعة :

ـ يبدو انك موسر يا عبد الرحمن ونحن لا ندرى ! ، فهذا المنطق هو منطق الأغنيـاء المرتاحين ، دائما يقولون المـادة لا أهمية لها .. طبعـا لانهم لم يجربوا يوما الحاجـة اليها ، ولو حدثت لهم لقالوا ـ مع محدودى الدخل ـ انها أهم شىء فى الوجود ! ..

مع ما فى هذا التعليل من معقولية .. رفضـه يومهـا عبد الرحمن ، وان تحـاشى بعدهـا الدخول فى مثل هـذه المناقشات مع ذلك الزميل اللاذع ، حتى جاء اليوم الذى أمن فيه .. بل وبصم بالعشرة .. ان عباس كان على حق .. مائة فى المـائة ! ، لدرجة ان يحدث ما حدث فى ذلك المسـاء .. على سبيل المثال ، توارت كثيرا أحزانه على فراق أعز انسانة لديه .. أى المشاعر المعنوية فى قمة صـورها .. أمام همومه المـادية القاسية ! ..

صدق الزميل اللدود .. فعلا الانسان لا يعرف قيمة أى شىء .. الا ما قد حرم منه ، صحيح هو بمقياس الثراء لم يكن ثريا بمعنى الكلمـة .. الا أنه فى نفس الوقت لم يرغب يوما أى شىء .. وعجز عن الحصـول عليه ، طبعا أى شىء فى حدود المعقول ، ليس من ذوى التطلعات الكبيرة أو الطموحات البعيدة ، كذلك زوجتـه .. قنوع مثله ، رأيا فى الخمسـة

والثلاثين ألفا ـ التى باع بهـا نصيبه فى تركة والده ـ كنزا كبيرا ، حيث وضعه فى احـدى شركات توظيف الأموال ، فكان يدر عليـه دخلا لا يقل عن سبعمائة جنيـه شـهريا .. اذا اضافهـا الى مرتبه .. مائتين وخمسـين .. والمـائتين مرتب زوجته .. يصبح مبلغا لا يستهان به ! ..

كان يقول انه يعيش بأفضل كثيرا ممن يملك المليون .. أو نصفه .. أو ربعـه ، حيث لابد أن تكون لصاحب هـذه الثروة مشاريع تجارية أو اقتصادية .. تحتاج الى رأس مال .. ربما يزيد حتى عما فى حوزته ، عدا بعض التطلعات الأخرى .. كشراء شقة تمليك .. أو سيارة « زلمكة » ، من ثم يقبض يده حتى يحقـق كل أو بعض هـذه المشروعـات ، ثروتـه هو البسيطة .. لن تحقق له شيئا من ذلك بطبيعة الحـال ، فلماذا اذن لا ينفق كل دخله لتحقيق كافة الضروريات .. ولا بأس أيضا ببعض الكماليات من أسـباب الرفاهية ! لمـاذا الادخار وعنده المبلغ الأصلى .. يستطيع أن يسحب منه اذا حتى جدت ضرورة ليست فى الحسبان ؟ ..

انه طبعا لم يكن يتصـور ان ما وقع لهذه الشركات يمكن ان يقع ، وهو من أول الأمر كان قد أمن نفسه .. حيث قسم مبلغه بين شركتين .. عملا بالمثل القائل « لا تضـع البيض

كله فى سلة واحدة » ، تحسبا من افلاس احدى الشركتين مثلا ، أما ان تكتشف الحكومة فجأة ــ بعد خراب مالطة ــ ان أعمال كل هذه الشركات .. سواء منها الوهمية أو الحقيقية .. غير مشروعه .. من ثم تمنع تصرفها فى أى مليم من ودائع الناس لديها .. فذلك أمر لم يخطر له قط ببال ! ..

كارثة .. كارثة بكل المقاييس ، أصابت العديد من المواطنين ، وكلما مرت الشهور .. ازداد حجم ووقع الكارثة ، لتتنوع المأسى والمصائب .. حسب ظروف المودعين .. لكل منهم روايته وأحداثه .. أو أنينه ومعاناته ، انه كنز قد فتح أمام مؤلفى القصص .. يمكنهم ان يغترفوا منه دون أن ينفذ قط ، والمسئولون يطيلون فى أمد ما أسموه بالتحقيقات .. وكأنهم يتلذذون بعذاب الناس ، مع انهم أبدا ليسوا بعيدين عنه ، الجرائم لا تقع فقط بسبب الأفعال .. انها ترتكب أحيانا بالامتناع عن الأفعال ، مثلا .. الطبيب عندما يمتنع عن علاج مريض حتى يموت .. يعتبر قاتلا ! ، وغيره وغيره ، فاذا لم تكن الحكومة قد فعلت شيئا .. لكنها فقط امتنعت عن التمحيص الدقيق فى أمر هذه الشركات .. ثم التحذير منها فى الوقت المناسب .. فانها تعد مسئولة تماما ، فكيف بها وهى قد فعلت ، هذه الاعلانات الضخمة فى صحفها القومية .. وأجهزة اعلامها المسموعة والمرئية .. بكل هذه الكثافة

واضفاء الأهمية .. بم يمكن أن توصف الا بالموافقة والتأييد والتشجيع .. بل والمباركة ؟ دارت كل هـذه الهواجس فى خاطر عبد الرحمن وبجوارها سؤال لحوح :

ـ كيف بعد كل هـذا تقف الحـكومة من مواطنيهـا الآن .. شامتة فيهم ان تركوا أوعيتها كلها واتجهوا نحو تلك الشركات ؟ ! ..

عموما كان ذلك التسـاؤل .. أو المقولة .. هى أخف ما راج فى أوساط المنكوبين من تعليلات ، حيث تواترت مقولات أخطر من هـذه بكثير ، واذا كان هو .. الذى لم يعتمد على أرباح هـذه الشركات فى كل ضروريات حياته .. وصـل به التعب الى هذه الدرجة .. فما بال من كانوا يأكلون منهـا ويعيشون عليها ؟ .. الذين وضعوا فيها كل ما يملكون لتصبح هى موردهم الوحيد ؟ ! ..

تعبان .. تعبـان جدا ، يحس كلمـا طالبه أحد أولاده بشىء .. وهو لا يستطيع تلبيته .. كما لو كانت كلمة « لا » تخرج من فمه مصحوبة بأسنة مدببة .. تمزق حلقه وتدمى شفتيه ! ، تمنى لو عرفوا من تلقاء أنفسهم الوضـع .. ليوفروا عليه كل هـذا الشعور بالمهانة والهزيمـة والمرارة ، لكنهم أطفال .. مهما حاولت أمهم افهامهم .. فانهم قطعا لا يستطيعون

الالمـام بجوانب المشكلة على حقيقتها ، بل حتى الكبار ..
كم من صديق أو قريب أبدى دهشته :

ـ معقول انك كنت وضعت كل ما تمـلك فى هـذه الشركات .. حتى تعانى اليوم هكذا ؟ .. ألا يوجد ولو مبلغ صغير .. هنا أو هناك ؟ ! ..

طبعا كان يوجد ، فى المنزل مثلا .. اعتاد أن يحتفظ فى درج مكتبه بمبلغ لا بأس به للمطالب السريعة ، ومثل هـذا المبلغ تقريبا كان فى حسابه بالبنك .. حيث أحيانا كانت تمر عدة أشهر لا يسحب فيها مرتبه المحول على ذلك الحساب .. طالمـا حصـل على أرباحه من الشركتين المرموقتين ، ومبلغ ثالث مودع فى دفاتر توفير أولاده ، ومبلغ رابع كان ابن شقيقته قد استدانه منه ليكمل شراء سيارته .. ثم رده اليه بعد حدوث ما حدث .. فكأنه وجد لقيه .. حتى تمنى لو أن ابن الشقيقة هذا كان قد طلب منه مبلغا أكبر ، كل هـذه المبالغ تبخرت .. حيث كان يضطر كل شهر لسحب مبلغ يساعد بجوار مرتبه ، مرة أخرى يقع فى خطـأ تصديق المسئولين .. الذين أكدوا ان هذه التحقيقات لن تستغرق أكثر من شهور ثلاثة ، من ثم اطمأن وراح ينفق من هـذه المدخرات ، بل بعد انتهائها عمدت زوجته لواحظ الى بيع سلسلتها وسلسلة ابنتها الذهبيتين ، يومها ثار عليهـا .. ظاهريا ، لكنه فى قرارة نفسه حمد لها هذا

الصنيع .. فلم يكن أمامهم سـواه ! ، قال لزوجته قبل بضعة شـهور :

ـ أحس ان موضوع هذه الشركات سينتهى آخر هـذا الشـهر ! ..

ردت بدهشة :

ـ لمـاذا ؟ .. هل أبلغك أحد بذلك ؟ ..

ـ كلا .. لكن .. ألم تسمعى بالمثل القائل « اشـتدى أزمة تنفرجى » ؟ ، أظن الأزمة بعد بيعك المصـاغ قد اشتدت بأقصى ما يمكن ان تشتد .. اذن فلابد أن تنفرج والا .. فالله وحده يعلم كيف سنعيش بعد ذلك ! ..

فعلا كان الأمر يحتاج لخبراء من صندوق النقد الدولى .. كى يرتبوا ميزانيته .. بحيث يكفى مرتبه ومرتب زوجتـه فقط .. للانفاق على ستة أفراد ، هما .. وأولادهما .. خالد وهشام ونيفين ، وجميعهم فى المدارس الخاصـة بمصروفات ، ثم أمه المريضـة أغلب الوقت .. والتى تحتاج دائما لمصاريف العلاج والدواء ، بالاضـافة الى سيارتهما الصغيرة .. التى لم يطب لها ان تقع فى غرام الميكانيكى .. فتكثر من التردد عليه .. الا بعد وقوع هذه الأزمة !! ، بل أبت الظروف الا ان تزيد من لهيب حلقات النار .. التى كانت تضيق أكثر وأكثر

حوله كل يوم .. فاصيبت أسعار كافة الضروريات بجنون ليس له من علاج .. حتى راحت ترتفع كل يوم ، كذلك الخدمات .. طالها نفس فيروس الغلاء الرهيب ! ..

فى هذا الوقت أعلنت احـدى شركتيه بشرى للمودعين بها .. انها .. اكراما لهم .. واحتسابا لوجه الله الكريم .. وزكاة عن عيون وعافية أصحابها الأجـلاء وأنجالهم .. ستقدم لكل مودع مبلغ خمسين جنيها شهريا .. تخصـم من أصـل ماله ، وذهب .. ليجد طابورا يصـل حتى الشارع ، دهش .. ما زال فى الصباح المبكر .. فمتى جاء كل هؤلاء ؟ ، أتراهم كانوا باتين منذ ليلة الأمس أمام الشباك ؟ ! ، دفعته دهشته لأن يسـأل أوائل الواقفين بالطـابور .. ليعلم انهم قد حضروا منذ السادسـة صباحا .. أى بعد أن أدوا صـلاة الفجـر مبـاشرة ! ..

وبدأت اجراءات الصرف تترى ، فكل من يحل عليه الدور يأخذ ورقة عليها رقما .. ثم يصعد للدور الثالث كى يختمها ، ثم ينزل الى الطـابق الأول حتى يستبدلوها له باذن صرف ، ثم الى الطابق الخامس كى يضـع أحد المسئولين توقيعه الكريم على هـذا الاذن ، ثم يعود الى الدور الأرضى مرة أخرى حيث الخزينة .. ليصرف المبلغ المهول ! ، عذاب وزحام .. وامارة من الموظفين ، وقت يضيع وأعصاب تحترق .. عرق يسيل ..

وأنفاس تلهث ، حتى ان الأستاذ عبد الرحمن كان يصمم .. فى كل مرة يحضر فيها لقبض هـذا المبلغ .. الا يعود لذلك الجحيم مرة أخرى ، لكن ظروفا قاسـية كانت تجبره على العودة فى الشهر التالى .. الى الطـابور المقيت .. من المتعبين المتعثرين على درب الزمن ، انه مبلغ تافه .. لكنه فى أشـد الاحتياج .. وكما يقولون ان النواة تسند الزير ! ..

حتى كان اليوم السابق على ذلك الصباح المشـهود ، ازدادت وطأة المرض على الأم الغالية ، رغم ضائقته .. نزل عبد الرحمن من فوره .. واشترى لها كافة الأدوية الخاصـة بحالتها ، لم يذهب الى عمله .. وظل ملازما لها طوال اليوم ، يعطيها الدواء فى مواعيده .. يهوى لها عندما تضيق أنفاسها .. يرطب وجهها بماء الكولونيا .. يريحها على صـدره كلمـا اشتدت الآلام ، قرب العشاء بدأت تحس بالراحة .. هدأت أنفاسها وانتظمت دقات قلبها .. فاستغرقت فى النوم ، أراحها الابن البار على مخدتها وذهب بدوره ليرتاح قليـلا ، حوالى العاشرة ذهبت لواحظ لتطمئن على حماتها .. وهى تحمل اليها صحنا من الشوربة الساخنة ، لكن الأم الصابرة كانت قد رحلت عن هذه الدار الفانية .. الى دار البقاء ، عندما يعلم عبد الرحمن يصيبه الحزن بالذهول .. لدرجة جعلت الدموع تتحجر فى مقلتيه .. خبط كفا بكف :

ـ كيف ؟ ! .. بعد تناولها الدواء تحسنت .. حتى نامت وهى فى خير حال !

بعد لحظات راحت السكرة وجاءت الفكرة كما يقولون.. حتى لقد توارت كثيرا أحزانه على فراق أعز انسانة لديه .. أمام مشكلته المادية القاسية ، جنازة الأم الحبيبة .. تحتاج لنفقات كبيرة ، ولا يوجد فى المنزل سوى مبلغ يغطى بالكاد مصروفات الطعام حتى آخر الشهر ، لا يهم .. ليربطوا الأحزمة باقى الشهر .. لكن لابد من اكرام الراحلة الكريمة ، بيد ان المبلغ كان صغيرا لا يكفى لشىء .. راح يعده مرة واثنتين وهو فى شدة القلق والحيرة ، لكنه اضطر الى تأجيل حيرته حتى يلحق بمواعيد طبع الجرائد اليومية .. ذهب الى كبراها وكتب نشرة بالنعى ..

النشرة وحدها .. رغم اختصارها .. ابتلعت أكثر من نصف نقوده القليلة ، طوال الليل .. كان ينام دقائق معدودات .. ثم يقوم مهموما ، فى الصباح خرج لشراء لوازم الجنازة ، اقتصر على الكفن الشرعى .. ليدفع فيه آخر مليم كان معه .. يا الله .. ما زال باقيا أمامه مصروفات الدفن والليلة والمقرىء والبن الخ ، فماذا عساه يفعل .. وكيف يتصرف ؟ ، هل يستدين ؟ .. لكن ممن وأغلب معارفه فى مثل حاله .. وحتى اذا وجد من يقرضه فكيف سيسدد له الدين ؟ ، هل يبيع بعض

أثاث منزله أو أجهزته الكهربائية ؟ .. لكن الوقت لا يحتمل ، هل ينزل الى الشـارع مادا يده للناس ؟ ! هـل يسطو على بنك ؟ ! . الحقيقة كانت سيول الهموم التى اجتاحته كفيلة بأن تكتسح أمامها آخر حصون العقل ! ..

حوالى العاشرة وقفت سـيارة نقل الموتى أمام الشركة اياها .. ونزل عبد الرحمن ، لكنه لم يقف فى طابور الجنيهات الخمسين ، طلب مقابلة مدير الفرع ، أمام مكتب المدير يجد حوالى خمسـة أو ستة أشخاص يتحـدثون .. فردا بعد فرد ليسمع العجب ، الأول أبلغ المدير ان مدرسـة أولاده تطلب المصروفات .. وقدم اليه اخطار المطالبة ، الثانى أكد انه بسبيل اجراء جراحة لزوجته ..وأخرج من ظرف معه صور الأشعة التى تعزز كلامه ، الثالث شرح تفاصيل الحـادث الذى وقع لسيارته .. وكيف ان اصلاحها يتطلب مبلغا كبيرا .. حيث الاصابات جسيمة .. كما يتضح من محضر الشرطة الذى جاء به معه ، الرابع .. قسـط الشـقة .. والمطـالبه فى يده ، الخامس .. قسط التاكسى الذى يطعمه وأولاده لقمة العيش .. ومستنده جاهز .. انذار تسلمه من بنك ناصر ، لكن المدير يعتذر لهم جميعا . الواحد تلو الآخر :

ـ مع الأسـف .. مهما كانت أعذاركم .. فليس من

صلاحياتى التصرف ، الأوامر التى لدى الا أصرف لأى شخص أكثر من الخمسين جنيها ! ..

أخيرا يتقدم عبد الرحمن :

ـ ماتت والدتى .. وهـذا تصريح الدفـن مثبت به اسمها .. وأيضا اسمى باعتبارى الذى استخرج التصريح ، كذلك هـذه نشرة الجريدة .. بها اسمها واسم ابنها الوحيد .. أنا ، وهـذه بطاقتى العائلية ، باختصـار أعرفك اننى ليس معى نقود .. كى أشيعها حتى مقرها الأخير .. نعشها الآن أمام باب الشركة .. فاما ان تصرف لى ما يكفى نفقات الجنازة .. أو أتركها لكم .. تواروها أنتم التراب .. من حر مالى الذى طرفكم !! ..

المدير يفاجأ .. حتى يرتج عليه .. للحظات ، ثم أخيرا يصرح له بصرف مائتى جنيه . « يحمل » الأستاذ عبد الرحمن مستنداته من أمام المدير .. ويضعها فى جيبه ، و « يحمل » المشيعون أهم المستندات .. نعش المرحومة .. على أكتافهم .. تمهيدا لبدء تحرك الموكب .. الى المثوى الأخير .

آلام السعادة

تفرس الطبيب الكبير فى وجه المريضة الحسناء محاولا أن يتبين أثر الخبر السار الذى حمله اليها .. ليجدها تنظر اليه وقد اتسعت عيناها .. ثم فجأة ودون أن تنطق حرفا واحدا ـ سقطت رأسها على وسادتها وراحت فى اغماءة طويلة ! ، ضحك د. عبد الرحمن جذلا وهم يتمتم فى سريرته :

ـ الى هذا الحد كانت سعادتها ؟ !

أسرع ينادى اثنتين من الممرضات ، أمرهما برعاية المريضة ومتابعة حالتها حتى تفيق ، ثم انسحب الى مكتبه .. لم يجد داعيا أن ينتظر افاقتها ، قطعا ستغرقه بكلمات الشكر والثناء ..

الأمر الذى يخجله الى حد كبير ، يعالج كل مرضاه باخلاص .. باذلا أقصى جهده وكفاءته وامكاناته .. لوجه الله فقط ، انه واجبه .. ولا يجد داعيا للشكر على الواجب .

لكن ويالله العجب ، عندما أفاقت منيرة لم تكن تشعر بكل تلك السعادة التى توقعها الطبيب النطاسى ، على العكس .. أحست بالاحباط يملأ كل خلجة فيها ! لكنهـا ـ وحتى تمنع نفسها من البكاء ـ فتحت فمها وراحت تضحك ! عموما لم تكن هذه المرة الأولى التى تحبط فيها أثر سماعها لخبر سار ، أو على الأصح خبر يعتقد من ينقله اليها أنه سار ، وهل تنسى يوم جاءتها ابنتها نهال تبشرها بأن أستاذها المهندس « عبد الودود » سوف يتقدم لخطبتها ؟ ..

كان يوما أسود من قرون الخروب ، هل يعقل هـذا ؟ ابنة المرحوم شعراوى باشا .. السفير الخطير .. تتزوج من ابن ناظر التحويلة ؟ ! ..

ليتعلم ما شاء أن يتعلم .. ليحصـل على أكبر شهادات العالم ، لكنه سيظل كما هو .. ابن الأسرة المتواضعة ، من عجب أن يحدث هـذا لها هى بالذات ، وكأنما صـدق المثل العامى الذى يقول ان « من يخاف العفريت يظهر له » ! فمنذ بدأت بعض تقاليد المجتمع تتحول أو تتغير .. مع شـعارات جديدة بدأ يرفعها المسـئولون فى أعلى المراكز ـ ربمـا فى

محـاولة لكسب ود الطبقـات الدنيـا ـ وهى خائفـة . بل مرعوبـة ، أن يرتبط ابنهـا أو ابنتهـا بشريك من مستوى يقل كثيرا عن مسـتواهم ، حيث المسـاواة أصبحت أنشودة العصر ، الكل يعزفهـا .. ويتغنى بهـا .. ويتمـايل على أنغامهـا ! .. لا بأس ، موافقـة هى ـ مـع شىء من الغضاضة ـ على المسـاواة فى كل شىء ، فى تولى المناصب .. فى الزمالة بالدراسـة الخ الخ ، لكن حتى يتعلق الأمر بالمصاهرة « ويفتح الله » الزواج ليس شابا يرتبط بفتاة ويعيشان فى جزيره معزولة .. لكنـه اندماج أسرتين معا بأوثق الوشـائج ، فى الزيارات .. فى الحفلات .. فى المناسبات .. سـواء كانت سارة أم حزينة .. يلتقى أفراد من الأسرتين ، فكيف يمكن أن يتفاهم هؤلاء وأولئك .. ويتبادلون الاحترام .. وبينهما بون شاسع من التفكير والتقاليد والعادات وكل شىء .. كل شىء ؟ بل حتى الأطفـال أولاد مثل هـذا الزواج غير المتكافىء .. كيف يمـكن لهم أن يحتفظـوا بتوازنهم وهم يرون كل من الأعمـام والعمـات .. والأخوال والخـالات .. خليط غير متجانس ، فريق على أعلى السـلم الاجتمـاعى .. وفريق فى أسفله ؟ ..

وهىلم تكن تدارى تفكيرها هـذا أبدا ، ولو من باب التظاهر بالتواضع .. كما تفعل بعض الصـديقات من أسر مثل

أسرتها ، لم تجد فيما تؤمن به ما يمكن أن تؤاخذ عليه حتى تتظاهر بخلافه ، على العكس .. الدين الاسلامى ذاته ـ على سماحته التى لا ينكرها مكابر ـ له موقف فى هذا الأمر ، انه يشترط أن يكون الزوجان على درجة متقاربة فى المكانة ، حتى أعطى ولى أمر أية فتاة الحق فى فسخ زيجتها لعدم التكافؤ اذا لم يكن من نفس بيئتها ، فهل تكون هى ملكية أكثر من الملك ؟ ، أو بمعنى أصح متسامحة أكثر من الدين ؟ !

لذلك فانها سعدت أيما سعادة عندما خطب ابنها رؤوف زميلته بالكلية .. وهى ابنة أسرة ذات حسب ونسب ، ولم يبق الا أن توافق نهال على أحد المتقدمين اليها من نفس المستوى .. حتى يهدأ بالها وتقر عينا ، لكن هذه لا تختار الا عبد الودود ـ الذى ينم حتى اسمه على مستواه ! انها تلوم نفسها أن سمحت لها بأن تأخذ درسا لديه .. لكن من أين لها ان تخمن ما حدث ، ؟ ، لقد كانت ابنتها ضمن مجموعة مكونة من أربع فتيات وأربعة شبان من دفعتها يأخذون هذا الدرس ، والحقيقة أنه فى مادته ، كان ممتازا ، حيث حصلت الابنة العزيزة على تقدير مقبول فى أغلب المواد .. فى حين حققت فى مادة عبد الودود تقدير جيد جدا ، لكن هذا لم يكن مبررا كى تتزوجه ! ..

عموما بسيطة ، نهال بنت مؤدبة . وهى لن تقدم على

الزواج بدون رضاها ، من ثم أعلنت عـدم موافقتهـا ، لكن يا للهول .. الابنة الرقيقة المستكينة أبدا تحت جناحى أمهـا تصمم وترفع راية العصيان ! ، وتبذل منيرة هانم كل ما تملك من حجج ترددها وتعيدها على مسامع نهال ، لكن هـذه الأخيرة لا تقتنع بأى منها ، وهى لا ترهق مخها فى محـاولة البحث عن حجج مضـادة تقنع بها أمها .. وانمـا تكتفى بتعليل واحد تسوقه « باحبه يا ماما !! » المناقشات تطول ، أيام وأسـابيع وشهور ، فنهال ليست متعجلة ، ان أمامها عاما آخر بالكليـة ، وهى بالطبع لن تتزوج حتى تحصـل على البكالوريوس ، واذن فالوقت فى صفها ، قطعا مع توالى خطوات عجلة الزمن ستطامن الأم من غلوائها وتسلم بأمر الحب ! ..

بالفعل أصبحت عبارات منيرة هانم أقل حدة واعتراضاتها أقل اصرارا مع الأيام ، حتى انها قبلت أن تذهب لزيارة أسرته ، لكنها ترجع من هـذه الزيارة للحى المتواضـع .. وقد عادت صرامتها فى الرفض أشـد مما كانت أول الأمر ، ولا تكابر نهال ـ وهل تستطيع وقد رأت بنفسها ؟ ـ لكنها تتعلل بمبدأ وجيـه :

ـ ما شأنى وأسرته ؟ ، اننى سأتزوجه هو ، هل لك أى اعتراض على مكانته كمعيد ينتظره مستقبل لامع ؟ ..

مهما طالت المناقشات والخلافات فانها لابد أن تحسم يوما ، وقد كان ، تزوجت نهال من عبد الودود ! ، كان اصرارها أكثر قوة من رفض الأم ، لكن لم يكن معنى هذا أن الأخيرة قد سلمت تماما ، فهى قد أكدت لابنتها أنها بتصميمها على هذا الزواج .. انما تقيم بينهما سدا منيعا :

ـ اذا تزوجت هذا الشخص فستكون آخر مرة التقى به هى ليلة الزفاف ، وبعدها لن أدخل لك منزلا قط ، ولن أقابله فى أىٰ مكان ، هو أيضا لن يدخل منزلى أبدا ، وعندما أود أنا .. أو تودين أنت أن ترينى .. تحضرين الى وحدك ، انك طبعا تعرفيننى وتعرفين اصرارى جيدا ، عندما اتخذ قرارا لا أغيره ولا أرجع فيه ولو انطبقت السماء فوق الأرض ، فهل أنت على استعداد لتقبل هذا ؟ ..

هزت منال كتفيها :

ـ طبعا لم أكن لأود ذلك .. ولكن ما حيلتى ، لست أنا التى تختار ..

وتحتد منيرة :

ـ بل أنت التى تختارين هذه القطيعة ، تستطيعين تجنبها .. بعدم اتمام هذه الزيجة ..

تتنهد نهال :

ـ تانى ؟ ! ، آسفة يا أمى : حفل الزفاف سيتم الخميس الأخير من الشهر القادم .. كما اتفقنا ! ..

بعد الزواج نفـذت منيرة هانم ما لوحت به فى ترتيب صارم .. لا يلين ، حتى عندما رزقت نهـال بطفلهـا الأول شريف .. كانت تتصل تليفونيا بالمستشفى حتى تعرف الأوقات التى لا يكون فيها عبد الودود هناك كى تذهب اليها !! فى العام الأول طلبت نهال من أمها .. أكثر من مرة ـ خاصة فى الأعياد والمناسبات ـ ولدرجة التوسل أحيانا .. أن تنهى هذه المقاطعة وتسمح لعبد الودود بزيارتها ، لكن الأم كانت دائما ترفض فى حدة وغضب ، بعدها كفت نهال تماما عن هذه المحاولات ، وتمر ثلاثة أعوام .. على نفس الحـال ، حتى راح نفر من أفراد أسرتها يتندرون ، البعض أكد أن هـذا ما كان يتوقعه حرفيا نظرا لمـا هو معروف عنها من تشبث بالرأى ، والبعض الآخر أرجع ذلك الى العرق التركى فى الأسرة ، ولم يخل الأمر من بعض ثالث اتهمها بأنها بلا قلب ! ..

لكن ذلك لم يكن صحيحا .. بالمرة ، كان لمنيرة قلب رقيق .. بدأ بعد حوالى العام ـ يتألم بشدة لذلك الوضع ، لكنها لم تستطع التراجع والكل ينظر اليها على انهـا امرأة قوية .. عندما تقرر فانها تنفذ ، ولا تحيد عما قررته أبدا ، وهى قد قالت لابنتهـا لن ولن ولن .. فكيف تتصرف عكس

المعروف عنهـا .. كيف تضعف اذن وهى التى لم تضعف من قبل قط ؟ . مضطرة اذن أن تطوى مشاعرها فى قبضة كبريائها.. حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

ألمها يزداد أكثر كلما تعلقت بشريف أكثر ، حتى أصبحت لا تستطيع أن يمر عليها يومان دون أن تراه ، والحق أن نهال لم تكن تقصر فى اصطحابه اليها .. لكن أحيانا تكون هنـاك ظروف تمنعها ، فتكاد الجدة تجن شـوقا اليه والى أمه أيضا ، مع ذلك لا تستطيع التحـدث اليها بالتليفون خشـية أن يرد عبد الودود ، من ثم تضطر أن تطلب احدى القريبات لترجوها أن تتصـل هى بنهال وتطلب منهـا أن تحادثهـا !! ، طبعـا كان هـذا هو السـائد من أول الأمر ، نهـال فقط هى التى تطلب أمها .. الأخيرة لا تتصـل قط ، لكن هـذا السـائد الذى كان مقبولا فى أول الأمر .. أصبح شيئا فوق احتمـال منيرة مع مرور السـنوات ، مع ذلك حاولت طويلا أن تدخر آلامها داخل دهاليز أعماقها المظلمـة ، انها تبكى .. لكنـه دائما بكاء داخلى .. غير منظور للآخرين .

ـ كيف يارب أستطيع الاتصال بكل الناس ولا أتصـل بابنتى .. الوحيدة ؟ ، كيف يتصل كل الناس بها ولا أستطيع أنا ذلك ؟ ، لمـاذا يارب كتبت على هـذا العذاب ؟ !

ضميرها كان أحيانا يزيد فى عذابها عندما يلومها :

ـ كان هـذا العذاب اختيارك أنت وحدك ، أنت التى

صممت ونفذت .. ألفت ولحنت ذلك الوضـع الغريب الذى لم يسمع به أحد قط ..

وترد على ضميرها بمرارة :

ـ لم أكن أعلم أننى سأعانى هـكذا ، كنت أظن أنى أعاقبه .. أو على الأكثر أعاقبها على عدم سماعها رأيى ، حتى اكتشفت أخيرا أننى لم أعاقب الا نفسى ، فعلى ما يبدو أحيانا لا تصيب الطلقة من أطلقت عليه .. لكنها تصيب من أطلقها !! .

مائة مرة فكرت أن تنقض هـذا العهد الذى قطعته على نفسها ، ومائة مرة عادت وتراجعت ، أحست أن ذلك سيبدو وكأنه تخـاذل .. وهى ترفض أن تتخـاذل ، كان كبرياؤهـا سورا بالغ الارتفاع .. حتى انها لم تستطع القفز من فوقه !!..

الى أن كان ذلك اليوم من الصيف المـاضى ، عندما أخذت نهال مفتـاح شاليه الأسرة بالعجمى .. لتقضى به أسـبوعين مع زوجها وطفلها ، وكان الاتفـاق أن تغادره عند ظهر اليوم الأول من الشهر .. حتى تذهب منيرة هانم مع رؤوف وزوجته وطفلتيهما ، لكن يبدو أنهم ذهبوا مبكرا عن الموعد ، أو ربما نهال وأسرتها الذين تأخروا عنه ، حيث عندما اقتربت سيارتهم.. وجدوا سيارة عبد الودود ما تزال أمام الشاليه فما كان من رؤوف الا أن أدار السـيارة ولف بهـا دورة كامـلة حول

المنطقة .. حتى يعطى الفرصـــة لنهال أن تنصرف مع أسرتها قبل حضور الأم .. الأم التى بلغت مرارتها فى تلك اللحظـــة حدا قاسيا يصعب تحمله ، كم ودت لو أن رؤوف مضى بالسيارة حتى باب الشاليه وهو يرجو أمه أن تتنازل وتقابل عبد الودود ولو من أجل خاطره هو .. وخاطر نهال أيضـــا ، لكن من أين لرؤوف أن يعلم بتحول موقف أمه بنسبة مائة وثمانين درجة ؟ ، بالتأكيد ــ حسب معرفتـــه بتصلبها فى الرأى خشى أن تثور عليه .. أو أن يتعكر مزاجها فى أول أيام الأجازة ، فاختـــار ما هو واثق من رغبتها فيه ! ..

عنـــدما راحت الســـيارة تلف المنطقـــة .. كان قلبهـــا يبكى .. دما :

ــ الناس فى المصايف يحبون اللمة .. مع أى أصدقاء .. فكيف بابنتى الوحيدة وحفيـــدى ؟ معهما كان البحر سيبدو أكثر زرقة .. السماء أكثر اتساعا .. النجوم أكثر عددا ، كم أنا متلهفـــة اليهما .. لكنهـــا للأســـف لهفة مقصوصـــة الجناحين .. بدل أن أهرع اليهما وقد أوحشانى خمسة عشر يوما .. ألف وأدور حتى أتحاشاهمـــا ! هـــل هـــذا معقول يارب ؟ ، ألا يحدث شىء .. أى شىء .. ينهى هـــذه المهزلة .. قبل أن يتسرب العمر ؟ ..

كالعادة بدأت الأفكار تتردد داخل رأسها .. كما أنوار

النيون التى تبرق وتنطفىء ، فكرت أن تطلب من رؤوف العودة قبل رحيل نهال .. لكن كرامتها وكبريائها وتماسكها المأمول والمنتظر أبوا عليها ذلك ، فأخرسوا لسانها عن النطق بهدا المطلب العزيز ، بل انها ، أرادت التظاهر أمام ابنها وأسرته بعدم الاهتمام .. فحاولت أن تتخذ من ابتسامتها ستارة تخفى ما بداخلها ، لكن ملامح وجهها تفشل فى صنع حتى ابتسامة صغيرة ، من ثم لجأت الى أعماقها .. وأغلقت الباب خلفها حتى لا يلحق بها أحدا ! ..

طيلة فترة المصيف وهى تفكر فى التساؤل الذى دار بخلدها وهى فى السيارة « الا يحدث شىء » .. أى شىء ينهى هذه المهزلة ؟، حتى توصلت الى فكرة ، شريف الصغير يشكو دائما من التهاب اللوز ، وقد نصح الطبيب باستئصالها .. لكن نهال لا تحزم أمرها ، بالطبع اذا أجريت لشريف جراحة اللوز فانه يكون أمرا منطقيا أن تذهب اليه فى المستشفى أى وقت .. حتى لو التقت بعبد الودود ، دون أن يؤول ذلك على أنه تنازل أو تراجع من جانبها وبعد ذلك طبعا ستنتهى المقاطعة ..

عندما توصلت الى هذه الفكرة شعرت بالكثير من الرضا والسعادة ، وبيتت فى نفسها أن تقنع نهال بالاسراع فى الجراحة ، وقد كان .. فى أول زيارة لابنتها بعد عودتها من المصيف .. أبدت قلقها بازاء هزال شريف وخشيتها .. أن يكون ذلك

بسبب لوزه السيئة .. الدائمة الالتهاب ، وأقرت نهال بالأمر :

ـ فعلا .. لقد أكد لنا الطبيب ذلك ..

فبادرتها بلهفة :

ـ اذن يجب أن تجرى له الجراحة بأسرع ما يمكن !

ردت الابنة الأم :

ـ مع الأسف .. قال الطبيب ان هذه الجراحة لا يمكن أجراؤها لأى طفل الا بعد بلوغه سن الخامسة ..

شهقت منيرة هانم :

ـ أى بعد عامين ونصف ؟ يا الهى .. هل سيظل ذلك الحال عامين آخرين ؟ ! ..

قالت نهال تهون عليها وهى لا تدرى عم تتحدث :

ـ لا مفر من ذلك ، عموما لا تقلقى يا ماما .. فالطبيب يتابعه بالعلاج باستمرار ..

وتعود منيرة تفكر فى الأمر لتصل الى أن الحل يمكن أن يتم عن الطريق العكسى ، أى أن تجرى لها هى الجراحة .. فيفرض الموقف على عبد الودود أن يأتى هو ليراها ، وعندئذ فانها هى ستتسامح ولن تمانع ! ، ولكن .. أية جراحة ، الزائدة طبعا ، دائما طبيبها يحذرها من أكل المخللات الحريفة حتى لا يلتهب المصران ، عند ذلك لا تكذب خبرا ، ثلاجة البيت

امتلأت فجـأة بجميع أنواع المخللات ، ما من أكلة تناولتها الا وتثرت عليها ملعقة كاملة من الشطة ، حتى جاء اليوم الذى أحست فيه بتلك الآلام .. السـعيدة ! ، وهـكذا أطلقت لحنجرتها العنان وراحت تصرخ ، الطبيب جاء .. فحصها .. قال بأسف :

ـ مؤكد هذا التهاب بالزائدة ، وغالبا أنك لم تعملى بتحذيرى اياك من بعض أصناف الطعام ، والآن .. لابد من نقلك الى المستشفى فلا سبيل أمامنا سوى الجراحة ، وسأتصل فورا بالجراح الكبير د. عبد الرحمن حتى يوافينا بالمستشفى..

منـيرة تسـمع ذلك وتكاد ترقص طربـا ، الدكتـور عبد الرحمن طبيب عظيم فعلا ، فى دقائق كان بالمستشفى .. حتى من قبل وصول المريضة ، بل ورتب فتح غرفة العمليات .. استدعى طبيب البنج والطبيب المساعد ، بعد حضور المريضة يقوم بفحصها واجراء بعض التحـاليل أولا .. ليكتشف أن حالة الزائدة ليست بالسوء الذى صوره له طبيبها الخـاص الذى استدعاه ، ورأى أن فى وسعه معالجتها بالحقن والمسكنات والأقراص .. دون ضرورة ملحة للجراحة ، عندها أسرع الى المريضة ليزف اليها الخبر السار :

ـ الأعور ليس ملتهبا جدا .. ولذلك فاننى « لن » أجرى لك الجراحة ! .

سـر الخـاتم

قال الطبيب دهشا :

أكدت لك من أول الأمر أنها جراحة سهلة .. ونتيجتها مضمونة .. طبعا باذن الله ، ثم انك وافقت على اجرائها .. فلماذا عدت ترفضين ؟ ..

ردت موضحة :

ـ أنا لا أرفض .. اننى فقط أطلب تأجيلها لمدة ساعة ..

هتف فى شىء من العتاب :

ـ تأجيلها سـاعة ؟ هل نحن نزمع الذهـاب الى نزهـة

أو زيارة .. انها مواعيد طبيب جراح وآخر مساعد وثالث للبنج .. وممرضات .. وفتح غرفة عمليات وو ..

قاطعته بصوت واهن لكنه حازم بات فى نفس الوقت :

ـ اذن فلن اجرى الجراحة .. وليكن ما يكون ! ..

تنهد الطبيب : حسنا .. سأحاول تدبير أمر التأجيل .. وان كنت هكذا تربكين أمور المستشفى بدون أى مبرر !! .

لا .. بل لديها المبرر ، قوى للغاية ، استدعت الممرضة لتسألها :

ـ عندما وقع الحادث كانت معى حقيبة يد بيضاء ..

ـ نعم احضروها معك ..

ـ حسنا .. فى هذه الحقيبة علبة صغيرة من القطيفة .. أرجوك ان تحضريها الى ..

خرجت الممرضة وهى مندهشة .. أيكون المرء مصابا ينزف .. وينتظر اجراء جراحة .. ثم يفكر فى حلية مهما كانت ثمينة ؟ ، احضرت لها العلبة ففتحتها .. وتنهدت عندما وجدت الخاتم بها .. عادت ترجوها :

ـ خذى هذا الرقم واطلبى سميرة .. قولى لها ان صديقتك حنان أصيبت فى حادث .. وانني أرجوها .. والح فى الرجاء .. ان أراها الآن .. فورا .

عادت الممرضة بعد أداء مهمتها لتطمئنها :

ـ مدام سميرة ستكون هنا فى خلال نصف ساعة ..

تمتمت فى دخيلتها . « ليتها تصل فعلا خلال نصف الساعة .. أود أن أعيد اليها الخاتم » .. كانت رغبتها شديدة جدا ـ تصل حد اللهفة ـ فى التخلص من الخاتم .. تماما بمثل قوة رغبتها فى الحصول عليه منذ أسابيع قليلة فقط ! عندما رأت الخاتم أول مرة فى يد سميرة هانم .. اثار انتباهها بعض الشىء تشكيله الغريب ، على هيئة أفعى من الذهب .. ترفع رأسها لتبدو وعيناها الحمراوان ـ من فصوص الياقوت ـ متوهجتان بشكل مثير ! ضحكت سميرة وهى تنظر للخاتم باعتزاز قبل أن ترد على سؤال لاحدى الصديقات :

ـ أهدته لى شقيقتى .. التى جاءت به من الهند عندما كان زوجها سفيرا هناك ، ورغم انه ليس غاليا .. اذ لا يتعدى ثمنه غالبا المائتى جنيه .. الا انه عزيز لدى جدا . حيث اتفاءل به ، منذ اقتنيته والنجاح يتوالى على شركتنا ، اننى لا ألبسه مرة وأذهب لقضاء أية مصلحة .. الا وتوفق هذه المصلحة !!

ضحكت جميع الصديقات .. وعلقت أكثر من واحدة بتعليق ظريف انهته سميرة :

ـ طبعا أنا أمزح .. فهذا أمر لا يمكن أن يكون له أى تفسير علمى . عدا انه يتنافى مع الدين ، وأعتقد أن جميعها أمور لا تزيد عن كونها مصادفات ..

ثم انتهى الأمر ـ غالبا ـ عند هذا الحد .. لدى الجميع .. الجميع الاها .. وكلما تعمقت فى التفكير اقتنعت بأقوال سميرة عنه ، فحقا منذ أعوام محدودة لم يكن زوج سميرة بأكثر من مهندس بسيط فى شركة صغيرة .. لا يملك سوى مرتبه ، والدليل .. ملابسهما البسيطة .. شقتهما المتواضعة .. سيارتهما ماركة « اللى يحب النبى يزق » أولادهما فى مدارس الحكومة المجانية ، الآن أصبحوا شيئا آخر ، شيئا آخر بالمرة ، استقال الزوج من الشركة وكون له شركة خاصة .. بدأت صغيرة ثم راحت تنمو فى قفزات سريعة متوالية ، ليستبدل الشقة بفيلا أنيقة .. تقف على بابها السيارة الفارهة ، ثم ما صاحب كل ذلك من مستكملات ، مدارس خاصة للأولاد .. ملابس فاخرة .. حلى .. فراء .. حفلات .. سفر للخارج ، نعم .. بالتأكيد حجم هذا النجاح .. الأدبى والمادى .. وسرعة تحقيقه .. يؤازرهم فيه .. الخاتم ! لاشك يحوى تعويذة سحرية ، وكلما توصلت حنان الى هذه النتائج تستخلصها من الأحداث .. تمتمت وهى فى شدة التمنى :

ـ ليتنى امتلك هذا الخاتم .. ولو لمدة أيام قليلة !

حتى وضعتها الظروف ذات يوم فى مواجهة امتحان عسير .. سقطت فيه بجدارة ! فى احد الاحتفالات التى اقامتها سميرة هانم وزوجها لمناسبة سارة لديهما ـ وما أكثرها ـ دخلت حنان دورة المياه .. لتفاجأ بالخاتم الأسطورة فوق رف الحوض ، بدا لها ساعتها وكأن الثعبان الذهبى قد دبت فيه الروح .. ومضى يتلوى فى مكانه ، فى حين راحت عيناه تبرقان بشدة .. كأنهما تحويان مغناطيسا قويا .. مضى يجذب يد حنان اليه ، امتدت أصابعها نحوه وهى كالمنومة .. انتفضت وهى تلمسه .. كأنها لمست حية حقيقة ..

ـ معقول ؟ أنا أسرق ؟ .. وأسرق من ؟ صديقتى ؟ .. أخون صديقتى ؟

لكن صوتا آخر .. من داخلها أيضا .. حاول أن يغطى على الصوت الأول :

ـ انت لا تسرقينه .. بل تستعيريه فقط .. لمدة أسبوعين ثم تعيديه الى صاحبته ، دون أن يشعر أحد .. ولو بوضعه فى علبة صغيرة ثم قذفة من شرفة غرفتها ليلا .. مثلا ، لا تنسى ان لديك فى الأسابيع القادمة عدة أمور هامة ومصيرية فى حياتك .. وتحتاجين فيها الى قوى من خارج الكون تقف معك ، أو على الأقل لتميمة تجلب لك الحظ الحسن !

دقائق وهى فى مكانهـا أمام الخـاتم بلا حراك يغازلها وتغازله .. يناديها وتناديه ، لكن لم يطل الصراع داخلها .. خاصة بعد أن اطمأنت ان أحدا لن يشك فيها .. فالحفل يحوى ما يقرب من مائتى مدعو .. يستطيع أى منهم أن يدخل الى دورة المياه فى أى وقت .. وبعد أن خمنت أن أحدا من الشغالين قطعا لن يضار .. من غير المعقول ان تتهمهم سميرة ولم يكونوا وحدهم فى البيت .. أو تبلغ البوليس من أجل شىء تافه كهـذا وتتسبب فى وضع ضيوفها جميعا موضع الشبهة ..

فى ثوان كان الخاتم يستقر داخل صدرها .. وان أحست ـ تكاد تقسم ـ كان شيئا أملس يتحرك حركة خفيفة جدا بين نهديها ، وبعد عودتها للقاعة بدقائق .. فكرت أن تغادر الحفل قبل أن تكتشف ربة الدار ضياع خاتمها .. معتذرة بصـداع مفاجىء .. أو بادعاء وجود موعد مع زوجها لمحادثتها تليفونيا من الخارج ، لكنها عادت وتمالكت نفسها .. حيث خروجهـا السريع هو الذى قد يثير الشك فيها ، وعلى العكس بقاؤهـا سيجعل التهمة تتوزع على كافة المدعوين .. خاصـة أن أحدا لم يرها تدخل دورة المياه ولا وهى خارجة منها ، الكل لاه مع الراقصة الفاتنة .. أو البوفيه العامر بما لذ وطاب ..

بحثت بعينيها عن ربة البيت وبدأت تتمعن تقاطيع وجهها.. هل ثمة قلق أو ضيق عليها ؟ .. اطلاقا .. على العكس ..

يتبدى وجهها .. ملونا بكافة ألوان السعادة والهناء ، هى اذن لم تكتشف ضياع الخاتم بعد .. أو ربما اكتشفته لكنها ـ حرصا على دوام البهجة فى الحفل ـ اجتهدت فى اخفاء مشاعرها حاولت أن تترك مراقبتها وتندمج فى المرح مع الباقين .. لكنها لم تفلح .. ثوان وتعاود رصد .. ليس فقط تعبيرات وجه سميرة .. لكن كافة أقوالها .. حركاتها .. وسكناتها ، الوقت يطول .. الدقائق تتكوم فى كتلة زمنية تضغط أعصابها وتكاد تخنقها بالاشتراك مع أسراب النمل التى بدأت تدب داخل دماغها .

مع مرور الوقت كان المفروض أن تهدأ حنان .. لكن على العكس راح توترها يزداد .. ونبضات قلبها ترتفع لتصبح كدقات الطبول .. حتى خيل اليها انها ستغطى على صوت الموسيقى .. وأن جميع من بالحفل بدءوا يسمعونه ولابد سيتحلقون حولها مستفسرين ، مؤكد سيفطنون الى السبب ، ليس ببعيد ساعتها أن يقفز الخاتم من صدرها أمامهم .. بل من يدرى ربما هم يعرفون الأمر حتى والخاتم مستقر داخل عبها .. والا .. فلماذا ينظرون اليها هكذا ؟ نعم .. كلما التفتت تجاه شخص تجده ينظر اليها .. بدأت أعصابها تنهار .. حتى كادت تصيح فيهم دون أن يسألها أحد :

ـ لم أسرق الخاتم .. لقد استعرته فقط !!

حاولت أن تتخذ من ابتسامتها ستارة تخفى ما بداخلها .. لكن حتى الابتسامة خذلتها ، فكرت أن تذهب الى دورة المياه لترجع الخـاتم مكانه .. لكن أملها ولهفتها على نجـاح الأمور الهامة القادمة فى محيطها عـاد يمسك رجليها عن التحرك عدا أنها خشيت أن تكون سميرة قد اكتشفت غياب الخاتم .. ثم تراها داخلة الى الحمام .. وبعدها تجده هنـاك فينكشـف الأمر ، لذلك عدلت عن هذه الفكرة ..

وأخيرا انتهى الحفل على خير .. وعـادت حنـان الى منزلها .. لتنام ليلتها نوما متقطعا ! لكن لا بأس .. كل ذلك يهون بجوار ما سيحدث فى الصباح .. عندما تذاع نتيجـة الثانوية العامة فتجد ابنها من المتفوقين ، انه يعيد الامتحان هذا العام ليحسن مجموعه .. كى يحقق حلمه وحلمها أيضـا بدخول كلية الهندسـة ، لم تستطع البقاء فى المنزل فريسة فى قبضـة القلق حتى يحضر القريب الذى كلفته باحضار النتيجة ، ذهبت بنفسها الى المدرسـة بعد أن لبست خاتم السعد فى أصبعها ..

فى المدرسة تفاجأ بشىء غريب جدا .. يغرس سـهام الدهشة فى تفكيرها .. جمال راسب !! ، هل هـذا معقول ؟ فى العام المـاضى لم تحضر هذا العدد من المدرسين ، مع ذلك كانت النتيجة أفضل ، تنبهت للخاتم فى أصبعها فازدادت دهشتها

لم يجلب لها الحظ كدأبه مع صاحبتـه .. عـادت تسـتدرك أنها عندما لبست الخـاتم كانت النتيجة قد رصـدت وكتبت وسجلت قبلها بأيام .. وربما أسابيع .. فماذا يفعل الخاتم ؟ قطعا سره يحدث فى الأمور التى تبرم وقت ارتدائه .. وهـذا سيظهر بوضوح حين نظر قضيتها الكبرى بعد أيام .. ميراث ضخم لجدها تنازعها عليه أسرة أخرى طوال أعوام عديدة .. حتى اسماها زوجها قضية الشرق الأوسط ! ، ليسخر كما يشاء .. لكن رأيه قطعا سيتغير عندما يصـدر الحكم لصالحها ، ومحاميها يؤكد انه سيكون كذلك .. الأمر فقط مسألة وقت ، الخصوم يعرفون انهم خاسرون خاسرون .. من ثم لجئوا للعديد من الدفوع والاستشكالات والاسـتئنافات والنقض الخ الخ ، حضرت القضية وقد حرصت أن تضع الخاتم فى أصبعها ..

انتهى المحامون من المذكرات ودق القاضى المنصة .. ثم صمت قليلا قبل أن يقول بصوت عميق :

ـ الحكم النهائى آخر الجلسة ..

كادت تصرخ فرحا .. سرك الباتع يا حضرة الثعبان أحمر العينين ، شهور وسنوات وهى تتمنى سماع هذه الجملة ، أكثر من مرة اعتقدت ان الموضوع فعلا قد اكتمل والحكم أصبح وشيكا .. لدرجة ان هيأت نفسها لسماعه .. واذا بالخصم .. أو بالأحرى محاميـه .. يخرج من حقيبته ـ وكأنها حقيبـة

الحاوى ــ دفعا جديدا ! جميع نصوص القانون وثغراته وبنوده لجـأ اليها .. حتى لعبة رد القضاة مارسها ذات جلسـة ، لقد مات جدها ثم والدها .. دون أن يشهد أحدهما نهاية هـذه القضية ، حتى جاء عليها وقت اعتقدت انها بدورها ستموت قبـل أن يبت فيهـا .. لكن ها هو الخـاتم العجيب يؤتى معجزته .. لم تملك ان رفعته الى فمها وقبلته ، لم تنتظر حتى يصدر الحكم .. واثقة انه لصالحها .. طبعا هـذا شيء مفروغ منه ، والا .. فهل يعقل ان القاضى الابتدائى .. ثم المستشار فى الاستئناف ــ وقد حكم كلاهما لصالحها ــ كانا على غير دراية بنصوص القانون أو موضوع النزاع ؟ !

لم تحس بسرور الدقائق حتى انتهت الجلسة ودخل القاضى لينطق بالحكم ، طوال ذلك الوقت وهى تحلق مع الأحلام .. وداعا للأتوبيس وأهلا بالمرسيدس .. وداعا لفساتين الموسكى والغورية .. لن تلبس بعد اليوم سوى المستورد ، الى الجحيم يا بضائع الجمعيات الاستهلاكية بطوابيرها المرهقة .. من الآن لن تذهب الا الى السوبر ماركت ، ولمـاذا تذهب ؟ ستتحدث بالتليفون لتأتى لها طلباتها حتى الفيلا .. نعم الفيلا .. وهل يعقل أن تظل فى شقتها هذه التى تشبه الجحر ؟

استغرقها الحلم فلم تسمع قهقهات مدوية ملأت الجو من حولها .. كانت ضحكات ساخرة فوق شفاه الزمن ، أيقظها دق

القاضى على المنصـــة من أحلامها .. تنحنح .. نطق الحـــكم النهائى .. الأرض من نصيب الأسرة الأخرى .. الخصوم ، وهى خسرت القضية ، لذهولها لم تستطع أن تعى الأمر جيدا .. لا ..انها فى حلم .. أو كابوس ، ظلت فى مكانها حتى انصرف الجميع وبقيت هى دون أن تنتبه انها أصبحت وحدها فى القاعة الفسيحة .. حتى محاميها لم يستطع أن يريها وجهه ، كان الحكم فى توقع الجميع مستحيلا فكيف حدث المستحيل ؟ !

وهى تمسح حبات العرق عن جبهتها لمحت الخاتم .. لم يتخل فقط عن جلب الحظ الحسن .. لكنه كان نذير نحس وشئوم ، كادت تخلعه وتلقيه على الأرض غيظا .. لولا تذكرت عهدها الذى قطعته على نفســـها .. بأن تعيده لصاحبته .. صاحبته التى كان لها ــ كما لمست بنفسها ــ طالع سعد وبركة ، لمـــاذا كان هـــذا الفارق ؟ .. هل لأن سميرة امتلكته بطريق شرعى أو قانونى ؟ ، اذن فالثعبـــان الأعجوبة غاضب منها اذ اغتصبته بدون وجه حـــق .. وهو لهـــذا يعاقبهـــا أو ينقلب عليها .. ليريهـــا الوجه الآخر من سحره الغامض المجهول ، عضت على شفتيها .. ليتها طلبته من سميرة .. انها صديقتها ولم تكن لترفض لها طلبا ، عموما ما زال الأمر فى يدها .. تستطيع أن تحدث ســـميرة وتخبرها بالأمر معتذرة وتستأذنها فى استبقاء الخـــاتم ، لكن هل تكشف هـــكذا ببساطة انهـــا

السارقة ؟ لماذا لا تعيد الخاتم لصاحبته .. وتكفيها هاتان الخبطتان فى رأسها ، لكن الأمل عاد يداعبها .. الماجستير حلم عزيز وهى قد أدركت الآن ان الخاتم السعد أو حارسه الثعبان صانع المعجزات لن يهبها بركته الكونية النادرة الا اذا أصبح وجوده لديها مشروعا .. أما عن نظرة سميرة اليها .. فهى ستقنعها انها قط لم تكن تنوى السرقة وانما الاستعارة .. والدليل هذه المحادثة ، قبل أن تخونها شجاعتها بادرت بالاتصال بسميرة التى هتفت « آه الخاتم !! .. تصورى اننى نسيت كل شىء عن ارتدائى له ليلتها .. ثم وضعى اياه فوق رف الحمام ! طوال هذه الفترة وأنا أظنه فى علبة مجوهراتى ، عموما انت أخت لى يا حنان .. ولا مانع أن تحتفظى به أى وقت تشائين .

بكت حنان : شكرا .. فقط أطلب منك أن تغفرى لى ، صحيح كنت أنوى اعادة الخاتم .. لكن يظل تصرفى خطأ لا شك فيه ولن أهدأ أو أغفر لنفسى حتى اسمعها منك بصراحة ووضوح .. انك سامحتينى ..

ـ أووه .. الأمر لا يستحق يا حنان وأنا ...

قاطعتها بانفعال : أرجوك يا سميرة ..

ـ حسنا لقد سامحتك ..

تنهدت حنان وهى تحس بالراحة لأول مرة منذ أيام عديدة، لهذا انصرفت الى رسالتها تستعيد بعض النقاط التى تتصور أن الممتحنين سوف يسألونها فيها .. رغم تمكنها التام منها ومن كافة نقاطها ، ثم جاء يوم مناقشة الرسالة .. فذهبت مطمئنة ، آه لو منحوها الدرجة العلمية بتقدير ممتاز ، لكن .. حتى اذا جاء تقديرها « جيد جدا » .. فلا بأس ، طبعا ارتدت الخاتم وهى تحس لأول مرة أنها لا تخشى أن يراه فى يدها أحد..

وبدأت المناقشة..وطالت ، ثم جاء وقت التقييم..رفضت الرسالة لأنها دون المستوى المطلوب ، معقول هذا ؟ .. بعد كل ما بذلت من جهد .. وبعد الاستحسان الكبير من جانب الأستاذ المشرف ؟ الخاتم ، مازالت لعنته تطاردها .. غريب أمره كلما ظنت انها عرفت سره عاد يستغلق عليها من جديد ، قطعا كان سماح سميرة من طرف لسانها وليس من صميم قلبها .. أو ربما سامحتها هى فعلا لكن الثعبان رفض قبول الاعتذار ، ونظرت اليه لتجده يكبر ويكبر حتى تحول الى وحش خرافى.. هجم عليها كأنه يريد افتراسها ، لكى تمنع نفسها من الصراخ فتحت فمها وراحت تضحك .. وتضحك ثم انقلبت تبكى بمرارة !

وفى اليوم التالى استجمعت عزمها على الذهاب الى سميرة كى تعيد لها خاتمها .. انه خاتم ملعون .. استقلت تاكسيا

الى منزلها .. لكن فى الطريق يحدث للتاكسى حادث تصـادم مع سيارة نقل .. لا يصاب فيه سواها .. وينقلهـا السائق الأمين ومعها حقيبتها الى المستشفى ، بعد الأشعة يقرر الطبيب اجراء جراحة لساقها ويخطرها بذلك .. فتوافق ، لكنها فجأة تتذكر الخاتم .. فتروح تصرخ :

ـ لا أريد الجراحة الآن .. لايمكن ، ستفشل الجراحة وتبتر ساقى .. أرجوكم .. أرجوكم ..

الطبيب يحادثها بدهشة :

ـ كنت موافقة من أول الأمر .. فلماذا عدت ترفضين ؟

وتوضح له : لا أرفض لكنى أطلب تأجيلها لمدة ساعة ..

رغم امتعاض الطبيب ـ فانه ـ ازاء تصميمها ـ لا يجد الا أن يحقق رغبتها ، لا تمر دقائق الا وتدخل صديقتها سميرة حجرتها وهى تصيح ملهوفة :

ـ ألف سلامة لك يا حنان .. يا حبيبتى ..

الأخيرة تضع فى يدها العلبة القطيفة .. دون أن تنطق ، ثم تلتفت للممرضة :

ـ اخبرى الطبيب اننى تحت أمره .. لاجراء الجراحة !

العهـد الأخـير

أمسكت بيدها بين يدى .. ضغطتها برقة .. وهمست فى أذنها :

ـ أعاهدك يا حنان .. أعاهدك اننى لن أعرف هـذه المرأة بعد اليوم .. أبدا .

لم تكن تلك المرة الأولى .. عاهـدتها نفس العهد قبل ذلك .. ويعـلم الله لم يكن فى نيتى ساعتهـا الحنث به .. لكننى ـ أيضا ـ لم أكن مصمما عليه كل هذا التصميم ..

أخذتنى شقيقتى علية من ذراعى وسحبتنى للخـارج ،

أغلقت خلفنا الباب .. تاركين حنان وحدها بغرفة النوم ، بادرتنى بمجرد جلوسنا :

ـ هات المفتـاح .. وسأنفذ أنـا ما كنا اتفقنـا عليه من قبل .

هتفت :

ـ أبدا .. سأحضرها أنا اليك عندما تنوين السفر .. وسترين اننى سأفعل بكل تأكيد .. فيم تفـكرين ؟ .. هـل تتوقعين أننى سأضعف مرة أخرى أمام تلك المرأة ؟

تلك المرأة .. لمـاذا وضعها القدر فى طريقى ؟ . احدى ألاعيبه القاسية ، بل أغرب شىء انه فى لعبته تلك استخـدم زوجتى حنان لتكون واسطتـه فى ذلك ؟ ، ألم تكن هى التى بذلت أقصى وسعها كى تبقيها فى المنزل بعد أن قرر أصحابه اخراجهـا ؟ . لكن أنى لها أن تعرف أن هـذه المرأة المسكينة المستضعفة المرتعدة كالطائر وسط عاصفة ممطرة .. لا تكاد تشعر بدفء الأمن حتى تتحول الى حية رقطاء تزحف من جحرها لتلدغ أول من تقابله ـ ولم تكن غير حنان نفسـها ـ تلدغها لدغة مميتة ؟ ، وكأنها تكافئها على مجهوداتها من أجلها ..

لم يكن اقناع أصحاب المنزل بالأمر السـهل .. كانوا يرون أن متطلبات تنظيف السلالم والعناية بالحديقة .. ودفع

ايصالات النور والمياه والعوايد الخ الخ .. تحتاج لرجل .. الريس عبده نفسه .. رغم طوله وعرضه وحيويته .. كان يقوم بهذه المهام بالكاد .. فكيف يقبلون ان تحل أرملته محله ، ماذا عساها تستطيع أن تفعل ؟ . وجاءت خديجة تكاد تقبل يدى حنان :

ـ اعملى معروف كلميهم .. أستطيع أن أشتغل مثل الحمار .. فقط لا يخرجونى من غرفتى . فأين عساى أذهب ؟.. وكيف أعيش ؟ .

رغم رفض أصحاب المنزل رجاء زوجتى فانها لم تنفض يدها .. ظلت تزورهم صباح مساء .. ترجو وتلح وتسوق الحجج ، أخيرا تعهدت أن تأتى بأحد فراشى مركز البحوث ـ حيث تعمل باحثة ـ يوما فى الأسبوع ليتعهد الحديقة وتتولى هى محاسبته ، لم تمض شهور حتى تبدت خديجة امرأة أخرى .. خلعت الملابس السوداء التى لم ترتدها فقط حدادا على زوجها .. بل انها كانت ترتديها منذ جاءت من البلد .. أو بالأصح منذ قال هو انها جاءت من البلد ، كما بدأت ضحكاتها ترن فى الفناء و .. و ..

لكن كل هذا لم يلفت نظرى لشىء .. فآخر انسان يمكن أن تجذبه هذه الحركات المكشوفة كان أنا .. بكل قيمى وتفكيرى المثالى وحبى لزوجتى وتربيتى الدينية من

صغرى .. وكل شيء .. كل شيء ، ولو أن أحدا قال لى اننى يوما سأعرف امرأة أخرى غير حنان لاتهمته بالجنون..ومن ؟.. خديجة زوجة البواب ؟ ! ، جرت الأمور فى سرعة لاهثة لم تترك لى الفرصة حتى لالتقاط الأنفاس ، ذات مساء كنت عائدا فاذا بى أسمع قرب حجرتها أنينا لشخص يتوجع .. ناديت عليها فزاد الأنين .. دخلت لأجدها فى فراشها شبه عارية .. هل يعقل أن هذه خديجة .. لقد كان كل جزء من جسدها يصرخ بالاغراء .. حاولت التراجع .. لم أستطع .. كنت أشبه بذبابة ألقتها المقادير وسط خيوط عنكبوت .. كلما حاولت الخروج التفت الخيوط على سيقانها أكثر ! .. خيوط ناعمة لكنها شديدة الاحكام .. لا يفلت الصيد منها أبدا .. و .. وسقطت ! .

لأكثر من أسبوع لم يكن عقلى يفكر فى أى شيء سوى هذه الواقعة .. وان كنت أحيانا أفكر فيها فأحس كما لو أننى أحلق فى السماء السابعة .. وأحيانا أخرى أشعر بانى فى أسفل سافلين .. أبعد أن بلغت هذه السن وتلك المكانة .. وأبيض فودى .. أنزلق هكذا ؟ أبعد ان تاب الله على من الحرام .. منذ عشرين عاما .. أى منذ زواجى .. أعود اليه ؟ ، وبعد أن أصبحت أبا .. لا هم له الا أن يرشد ابنه وابنتيه الى الطريق السوى ؟ ، وفى المقابل كانت النشوة تشملنى من قمة رأسى

حتى أخمص قدمى .. لمجرد استعادة تلك اللحظات فى خيالى ، هذه المرأة .. شىء آخر .. شىء آخر بالمرة .. مختلفة عن جميع النساء ـ وقد عرفت الكثيرات قبل زواجى ـ مختلفة تماما ، كل النساء يدندن بالغناء .. لكن ندرة موهوبات يتفنن فيه فيبلغن شأنا عظيما .. أيضا كل النساء يطهين الطعام .. لكن قلة منهن يتفنن فى هذا المجال فتصبح لأصنافهن نكهة لا تجارى .. كذلك لا توجد امرأة لم تتمايل على نغمات الموسيقى لكن عددا محدودا منهن يفعلن ذلك بفن أصيل فيصبحن متميزات ، خديجة كانت بدورها فنانة .. فنانة مبدعة .. ليس لها مثيل ! .

ويدور الصراع داخلى .. ويشتد .. حتى ينتهى بتغلب الضمير والمثل والقيم .. ورحت استغفر الله وأضاعف الصلاة والزكاة عله يقبل توبتى ، لكن خديجة لا تسلم .. أخذت من زوجتى مفتاح الشقة لتنظفها بعد خروجنا جميعا .. عندما تركتنا الشغالة ، وأكاد أوقن أنها كانت وراء تركها منزلنا .. بيد أنها لا تلتزم بأوامر حنان فى بدء التنظيف بعد خروجى فى تمام العاشرة .. لا تكاد زوجتى تخرج حتى أجدها أمامى فى الشقة .. أحيانا فى الصالة .. وأحيانا فى غرفة النوم .. بل وحتى فى الحمام ! .. تروح وتجىء وقد شمرت ثيابها ، لكننى كنت مستعدا فمضيت أقاوم .. وخديجة تصعد خطتها..

لم تعد تكتفى بالرواح والمجيء أمامى وانما بدأت تحدثنى « لماذا بعدت عنى ؟ .. لم أعد أستطيع نسيانك الخ » حتى زجرى اياها لم يردعها ، خشيت أن تضعف مقاومتى فطلبت من حنان منعها من دخول الشقة متذرعا بخوفى من السرقة .. لكنها رفضت لوطأة العمل الشديد بالمركز فى تلك الأيام بدرجة لا تستطيع معها أن تباشر نظافة المنزل .

يوما فكرت أن أنصح خديجة بدلا من نهرها :

ـ اسمعى .. ما رأيك أن تتزوجى ؟ .. أليس هذا أفضل ؟ . سأحاول أن أجد لك زوجا من بين سعاة الشركة .

ردت بدلال :

ـ لكنى أحبك أنت !!

ـ أنا رجل يخشى الله .. ولا أريد أن أخسر دينى .

فجأة أخذت تضحك :

ـ هذا كل الأمر ؟ قطعة ورقة بحجم الكف .. تكتب فيها أنك تزوجتنى .

شهقت :

ـ زواج عرفى ؟ !

ـ حلال كما تعرف ..

ولمدة أيام طويلة عشت فى دوامة .. عملى .. مكانتى الأدبية والاجتماعية .. أولادى .. زوجتى .. وذكرياتنا المشتركة طوال عشرين عاما . مضت كترنيمة ظننتها أبدية .. تستمر الى نهاية الحياة ، لكن حياتى الخاصة .. من حقى أن أستمتع .. أن أسعد .. نعيش مرة واحدة ، طيلة حياتى أفعل ما ينبغى وليس ما أحب .. بلغت الخمسين .. ربما لم تبق لى الا سنوات معدودة..الأزمات القلبية أو وباء العصر كما يسمونها تختار دائما رجال الأعمال فى هذه السن ، لماذا لا أحاول أن أغترف من مباهج الحياة فيما تبقى من عمرى ؟ .. لا نعيش لنعمل فقط .. لسنا آلات ، أقوم بكل واجباتى .. لماذا لا أحصل على كل حقوقى ؟ آه منا عندما نريد شيئا بكل قوتنا .. نطوع المنطق لما نريد .. نلوى ذراع الحقيقة .. وربما عنقها ! .

ما فتئت أردد لنفسى .. أجل كل حقوقى .. وجسدى له حقوق أيضا كقلبى وعواطفى ومشاعرى .. وكلها من حنان.. فماذا سيضيرها ؟ .. لن أسحب من رصيدها فى أى خلجة لدى لأمنحه لخديجة .. لن أتنقص منها أى شىء ماديا كان أو معنويا .. ستظل هى ملكة قلبى المتوجة .. أبذل كل وسعى لاسعادها هى والأولاد .. ما ضرهم لو تركونى أسعد بدورى

لـماذا تضايقهم سعادتى ؟ .. أفرح أنا كلما نجح أحد أولادى .. كلما حصلت زوجتى على ترقية أو درجة علمية .. حتى وصلت الى مكانة محترمة ، نعم هى محترمة جدا فى عملها .. محترمة جدا فى وسط أصدقائنا .. محترمة جدا فى .. فى الفراش !!

انتهيت من أهم عقبة .. اقناع نفسى : وهكذا كتبت لها الورقة .. الغريب اننى لم أطلق عليهـا كلمة عقد أبدا ، ويبدو أن الأقدار كانت مقتنعة بالأمر هى الأخرى ، والا لمـا سهلته لى هكذا .. كانت فكرة مكان اللقاء تؤرقنى .. فليس من المعقول أن أظل أذهب اليها فى حجرتها خشية لفت نظر أحد ، كما أن العثور على شقة بتكاليف معقولة كان أمرا مستحيلا .. واذا بالشقة توجد بطريقة أشـبه بالمعجزة .. نقلت شقيقتى المدرسة الى الاسكندرية فقررت تأجير شـقتها ـ الصـغيرة المتواضعة الأثاث ـ مفروشة ، وطلبت منها فى أريحية أن تسافر هى وتترك لى أمر الشقة وتأجيرها أتولاه بنفسى .. فما أسرع ما سافرت بعد أن شكرتنى بشدة .. وما أسرع ـ أيضا ـ ما نقلت خديجة اليها بعد أن اشتريت لها بعض الملابس ، فى أول الأمر كنت أذهب اليها كل يومين .. ثم مع انشغالى الشديد لم أعد أستطيع الذهاب سوى مرة واحدة أسبوعيا .

لم تمض شهور حتى وقعت الواقعة .. جاءت أختى من الاسكندرية ولم أكن بالمنزل فرجت زوجتى أن تصحبها الى

شقتها لتأخذ بعض لوازمها منها وتحصـل الايجار .. وذهبتا لتكتشفا كل شيء .. كل شيء !

قالت حنان بطريقتها المحترمة جدا :

ـ أرفض أن يكون نصيبى نصف رجل .. أرفض أن توازى ـ بزواجك من كلتينا ـ رأسى برأسها .. أرفض الكذب والخداع .. أريد الطلاق ..

ظننت اننى اذا بسطت أمامهـا الحجج التى أقنعت بهـا نفسى ستقتنع بدورها .. فرحت أعددها ، الغريب أن حججى هذه هى التى أثارتها فاذا بها تنفجر صارخة :

ـ تقول ان شيئا لن ينقصنى ؟ حسنا فاذا أنا عرفت رجلا سواك فان شيئا لن ينقصـك .. فهل تقبل ؟ .. تسأل ماذا يضيرنى ؟ اذا لم تقنعك مشاعر الكرامة والاخـلاص وكافـة المعنويات فهناك أيضا ماديات .. ما دمت جعلته زواجا أفليس هناك احتمال أن تنجب ؟ . وهكذا ترزء أولادى باخوة من أصل وضيع..فلا أحد يعرف من هم أهلها واخوتها بعد اكتشافنا مؤخرا انها لم تكن من بلد الريس عبده .. وانما هو وجدها فى الطـريق تبكى بعد هروبهـا من أسرتهـا ، أيضـا هؤلاء الأولاد .. من سيتكفل بهم بعدك ـ والأعمار بيد الله ـ أليس أولادى أيضا ؟ ، ثم هـذه التى تذهب اليها مرة واحدة فى

الأسبوع .. هل تكفيها هـذه المرة وأنت أعلم بها ؟ . اسأل الجيران يقولون لك انهم أخرجوا يوما من غرفتها سائس الجراج المقابل . كنت يومها فى احدى سفرياتك . وتحرجت أن أقول لك عن ذلك حيث اننى التى توسطت لبقائها ، واذن فالمتوقع أن تضع رأسك فى الوحل ! .

أرعبتنى أقوالها .. وتذكرت اننى فقط الذى كنت هيابا من فكرة ارتكاب الخطيئة .. أما هى فلم يكن الأمر يفرق معها كثيرا ! ..

لم أكن أستطع رؤية دموع حنـان .. تغلب حبهـا فى قلبى .. وأنا أحاول ارضاءها مددت يدى وأمسكت يدها .. عاهدتها على أن أقطع كل ما بينى وبين هذه المرأة .. وأن أحضر لها ورقة الزواج لتمزقها بنفسها ، وتم الاتفاق .. سآتى بخديجة وأسلمها الى شقيقتى التى ستنتظرنى فى بوفيه المحطـة .. حيث تأخذها معها الى مدرستها بالاسكندرية ـ وكان بها عجز فى الفراشات ـ لتعمل هناك ..

عندما دخلت عندها كنت أكاد أجن .. أهم شىء عندى أن أعرف متى كان حادث السائس هـذا .. هـل كان قبل أو بعد تعرفى بها ، وقذفتها بما عندى .. لكنهـا بكت وأقسمت وتوسلت .. وبكل وسيلة تجيدها حاولت أن تسترضينى ..

و .. وللمرة الثانيـة تسقط الذبابة فى خيوط العنكبوت .. بعد أن نسيت عهدى لحنان ! .

ولم أكن أعلم أنها ـ زيـادة فى الاطمئنان على تنفيذى للاتفاق ـ ذهبت مع علية الى المحطة .. وطال انتظارهما لى معا .. حتى اقترب موعد قطار علية .. فأرادت أن تستأذن من حنان وتسافر .. لكنها لم تستطع وهى ترى التوتر يبلغ بحنان أقصى مداه .. مع مرور الدقائق بدأ وجهها يتغير .. بينما راحت يداها ترتعدان وهى تتمتم من بين دموعها :

ـ لقد عاهدنى .. عاهدنى .. عاهدنى وهو ممسـك بيدى ! .

كشفت كلماتها عن سبب انهيارها البالغ .. كان ألمهـا لنكثى العهد أقسى منه أضعافا عندما اكتشـفت الموضـوع لأول مرة .. الأمر الذى أدهش شقيقتى بعض الشىء .

حكت لى علية كل ذلك ونحن ننتظر خروج الطبيب ـ الذى استدعيته على عجل بعد عودتهما ـ من غرفة حنان ، قال الطبيب :

ـ أزمة قلبية حـادة .. لا أخفى عليـك .. الحـالة دقيقة .. لكن الأمل موجود ..

وكدت أجن .. لم أبال بتعليمات الطبيب .. اقتحمت الحجرة .. هتفت بها ملهوفا :

ـ حنان .. كانت هناك ظروف .. لكنى عند عهدى ..

حولت وجهها للناحية الأخرى .. عدت أقول بضراعة :

ـ أرجوك يا حنان .. استمعى لى .. ولو ثوان .. صدقينى ..

أحسست بأنفاسها تضطرب فأسرعت أضع لها قناع الأوكسجين .. يومان كاملان وأنا أحاول أن أستجدى الأمل وسط حضيض اليأس . كلما رأيتها تتحسن أحاول أن أحدثها .. أن أفهمها حقيقة ما فى قلبى .. أن أؤكد لها اننى أبدا لم أحب سواها .. واننى على استعداد لأن أقذف بالعالم كله خلف ظهرى من أجلها .. فقط لا تتركنا ، لكنها فى كل مرة كانت تشيح بوجهها بعيدا عنى .. وأخشى ان أثقلت عليها أن تعاودها الأزمة .. فأغادر الغرفة وقلبى يتمزق .. ألما وندما ..

حتى كان صباح اليوم .. عدت احاول استرضاءها .. ويبدو أنها أحست بى .. فساعتها لم تكن شفتاى تتحدثان .. وانما قلبى .. واشتركت دموعى فى تأكيد حديثه .. لأول مرة ابتسمت لى .. ابتسامتها أضاءت وجهها .. والدنيا كلها

من حولها .. بنور وردى .. بدن كأنها قد شفيت تماما .. قبلتها وأنا أهتف :

ــ الحمد لله .. الحمد لله .

لم تنتزع نفسها منى كالمحاولات السابقة .. على العكس .. بادلتنى قبلتى .. مدت يدها وربتت على يدى .. فاضت بى السعادة .. أخذتها على صدرى وتعانقنا .. فجأة وجدت ضغط ذراعيها حول ظهرى يخف .. ويهن .. خشيت عليها التعب .. فأرحتها على وسادتها .. لكنها ــ وياللهفة قلبى ــ كانت قد ذهبت .

وجاءت علية على نحيبى .. أرادت اخراجى لكنى استمهلتها حتى أتم حديثى معها .. أمسكت بيدها بين يدى .. ضغطتها برفق .. همست فى أذنها :

ــ أعاهدك يا حنان .. أعاهدك أننى لن أعرف هذه المرأة بعد اليوم .. أبدا .. والله على ما أقول شهيد .

لمـاذا ولمـاذا ولمـاذا ؟

استخفته الفرحة حين قال له رمضان الفراش ان شقيقته وأشقاءه موجودون جميعا بغرفة الصـالون ، من ثم أسرع متجها الى هنـاك ، فى الصالة تناول منشفة وراح يجفف بهـا عرقه قبل أن يدخل اليهم .. لكنه تسمر فى مكانه عندما تناهى اليه صوت شقيقه الأكبر خليل يصيح محتدا :

ـ خلاص .. انتهينا .. هذه الزيجة لا يمكن أن تتم .

ردت شقيقته عنايات :

سنعتبر جميعا من الحمقى الغافلين اذا تركنا هـذه الفتاة الافاقة تستولى على كل شىء .

ـ طبعا أفاقة .. هذا شيء ليس فى حاجة الى برهان ، وما وافقت على الزواج منه الا من قبيل الطمع .

ولم يفت الشقيق الأصغر عماد أن يدلى بدلوه فقال فى لهجة ساخرة :

ـ أعتقد أننا لو سألناها هى نفسها .. لما استطاعت الانكار أو التمويه ، فهل يمكن أن تدعى مثلا .. مثلا .. أنها أحبته ! ؟

قالت الشقيقة الكبرى خديجة :

ـ الذى يخيفنى فعلا ما أكدتموه أنها اذا تزوجته فحتما ستخونه .

كان ذلك أكثر مما يستطيع أن يحتمل .. الجملة الأخيرة وحدها كانت بمثابة نصل أغمد فى قلبه .. حتى كاد يصرخ متألما ، لكنه بجهد استطاع السيطرة على مشاعره .. وبادر ـ بكل هدوء ـ يدير عجلات كرسيه المتحرك ، ليخرج من جناحه الخاص بمدينة الوفاء والأمل وقد انكسر شيء فى أعماقه كان منذ لحظات ينبض بالفرحة !

بدون هدف سار فى الممر .. حتى وجد نفسه أمام المكتبة فدخلها ، وقف أمام أرفف عديدة تحوى المئات من الكتب ، لكنه لم يجد لديه أية رغبة للقراءة ، ألف هذه الكتب أدباء

مشهورون لكنه لا يعتقد أن واحدا منهم كتب قصة لها عمق أو أبعاد قصة حياته ، قصة تحوى العجب رغم أن كل أحداثها منذ ولد حتى بلغ الخامسة والعشرين لا تستغرق كتابتها صفحة واحدة ، حياة عادية .. مثل الآلاف أو الملايين ، لعب وهو طفل .. ثم ذاكر وهو صبى ، ثم أحب وهو شاب ، ومضى يحلم ـ ككل الشباب ـ بعش السعادة مع حبيبة القلب . أخيرا بدأت المقدمات تنبىء بقرب تحقيق الأحلام .. تخرج ملازما بالقوات المسلحة . ثم أعلنت خطبته على فتاته الحسناء ..

حتى جاء اليوم المشئوم .. الذى بتر أحلامه وقلب كل شىء رأسا على عقب ، أثناء بعض التدريبات انفجر فيه لغم .. ونقل الى المستشفى فى غيبوبة تامة ، بين الحياة والموت ، فالاصابة كانت فى المخ ، استمرت حالة الغيبوبة ما يقرب من شهر .. والأطباء يبذلون أقصى وسعهم .. وهم يتأرجحون بين الرجاء واليأس ، يوما يتبادلون الأسف « لا فائدة » ويوما آخر يفاجأون بشىء من التحسن !

هل كان من حسن حظه أم من سوئه ان أفلت من براثن الموت ؟ حيث تمخضت الاصابة عن شلل بأطرافه الأربعة وفقدان للنطق ، اذن هو لا يزيد عن جثة تتنفس ، جثة كتب عليها أن تتجمد فى صقيع الوحدة .. فما أقسى فقد النطق .. لا يستطيع

أن يعبر عما بداخله .. أو يطلب ما يريد ، حقا هنـاك أشخاص كثيرون حرموا نعمة النطق .. لكن سـلامة سيقانهم تمكنهم من عمـل أو أخذ ما يريدونه بأنفسهم دون حاجة لطلبـه من أحد ، فاذا اضـطروا للحـديث لجئوا للاشـارة بأيديهم ، أما بالنسبة لاشرف فيداه بدورهما لا تتحركان .. اذن قضى عليـه بالصمت والانعزال .. حيث انقطعت كافـة وسـائل الاتصال بينه وبين العالم أجمع .

حظ بالغ السـوء .. فحتى عنـدما بدأت احدى يديه تستجيب للعلاج الطبيعى .. ليتمكن من تحريكها .. كانت اليد اليسرى ، وكم تمنى لو كانت اليمنى حتى يستطيع أن يتفاهم مع الأسرة عن طريق الكتابة ، لكنه على العموم حمد الله كثيرا على حركة هـذه اليد .. فشىء خير من لا شىء ، على الأقـل استطاع أن يخرق حاجز العزلة الرهيب ويتفاهم مع من حوله عن طريقها .. ببعض الاشارات .

العام الأول مر عليـه كأنه قرن .. متنقلا بين عديد من المستشفيات والعيادات ومراكز التأهيل ، كل فترة يلوح له أمل جديد ، ثم ما يلبث أن يخبو ، حتى سمع أنه يوجد فى انجلترا اخصائيون فى التخاطب .. لتدريب من فى مثل حالته على العودة للنطق ، فتقدم طالبا السـفر الى هنـاك ، وحصل على موافقة الوزير ، لكن بعض هواة التعقيد أوقفوا أمر السفر ، بحجـة

انه عنـدما يتعلم النطق هنـاك سـينطق بالانجليزيـة وليس بالعربية ! ، بيد أنه ـ وأسرته من خلفـه ـ لم ييأسـوا .. وحاربوا من أجل السـفر باستماته الى أن أقنعوا المسـئولين ان من يتحدث الانجليزيـة يستطيع التفـاهم مع الكثيرين فى مصر ..وذلك أفضل كثيرا من عدم النطق .. حتى نجحت المساعى وسافر . لكنه عاد كما ذهب .. لم تنجح المحـاولة حيث ظهر ان الاصابة كانت مباشرة فى مركز الكلام بالمخ ..

المهم أنه عاد ونفسيته أفضـل عندما أحس ان بلده لم يضن عليه بشىء .. لم يضن على الاطلاق ، على العكس..أغدق وأغدق .. حيث اعتبرت الاصابة أثناء وبسبب الخدمة ، فتقرر له تعويض كبير ومعاش ضخم ، أيضـا تقررت له أولوية فى كافة الامتيازات التى تمنحها القوات المسلحة لأفرادها دون أن يدخل أية عمليات قرعة ، شقة .. سيارة .. غسالة .. ثلاجة الخ الخ ؛ حتى ما لم تكن شقته بحاجة اليه تقاسـمه أشقاؤه حتى امتلأت بيوتهم ..

أما ميزة المزايا بجد فكانت شقق المصايف .. كل عـام يتقدم ـ أو تتقدم أسرته باسمه ـ لحجز شقة من خمس غرف فى أفخم عمارات القوات المسلحة بأجمل شواطىء الاسكندرية، حيث يصحبه أشقاؤه وشقيقاته جميعا ومعهم أسرهم ، لم ينظر

لذلك الأمر من زاوية استغلال الأسرة لاصابته .. اطلاقا ، كان كل ما يحصلون عليه عن طريقه يسعده .. حيث يشعر أنه رغم حالته لا يعيش عالة على أحد .. على العكس .. هو الذى يمنح ويعطى ويهب ، أما فى المصيف فكان ذلك يسعده مرتين .. رغم أنه لا يسبح ولا يلعب الكرة ولا ولا الخ الخ ، لكنه عندما يرى أشقاءه وشقيقاته وأولادهم جميعا يمارسون كل هذا يستمتع مثلهم .. وربما أكثر منهم .. تنعكس سعادتهم فى عينيه نورا وضياء ، لا .. انه ليس جثة تتنفس كما وصف نفسه فى بداية اصابته ، ما زال ذو فائدة .. وفقط كان فيما مضى يفيد أسرته الكبيرة .. أبناء وطنه .. والآن يفيد أسرته الصغيرة ، السبب الثانى لسعادته كان لالتفافهم حوله وائتناسه بهم حتى راح يحمد الله فى دخيلته .. حقا ما تقول الأمثال « ان الله قبل أن يبلى بيدبر ، وقبل ما يكسر بيجبر » ، ألم يكن من المحتمل أن يصاب هذه الاصابة خارج الخدمة .. فى حادث سيارة مثلا ، طبعا لم يكن ليحصل على أى من هذه المزايا .. وبالتالى لم يكن شمل الأسرة ليلتئم من حوله هكذا .. وما أقسى الوحدة على من كان فى مثل حالته .

فى بداية العام الثانى لاصابته كانت نفسيته فى حالة أفضل الى حد كبير ، من ناحية أنه بدأ يعتاد هذه الحياة ، ومن ناحية أخرى كف الأطباء والأصدقاء عن التلويح له بآمال

الشفاء .. فما كان أقسى مرارته عندما تتبدد تلك الآمال ، هذا الى جانب ذلك الرضاء الذى يشع داخل أرجاء قلبه كلما رأى أفراد أسرتـه يمرحون وينطلقون فى النـوادى والرحـلات والمصايف ، التى يستمتعون بها عن طريقه .. أسرته كلها عدا والدته .. لم يرها يوما منذ اصابتـه الا والدموع معلقـة فى عينيهـا .. لاهى بمستطيعة ابتلاعهـا .. وفى نفس الوقت لا تسمح لها أن تسيل .. ربما على الأقـل أمامه .. طبعـا فيما عدا ذلك اليوم المشهود .. ليلة العيد الأخير فى حياتها .. عندما أرسل أشرف شقيقته خديجـة الى خطيبته كى تبلغهم بفسخه الخطبة ، وماذا ينتظر ؟ .. أن تفسخها هى ؟ ، حتى سفره الى الخارج كان ما يزال يأمل فى الشفاء .. لذلك ظل يلبس دبلتها فى أصبعه .. بعد عودته جاءت مع شقيقها ليهنآه بسلامة الوصـول ، خلال الزيارة ظل الشقيق يكرر السؤال تلو السؤال عما قاله له الأطباء هناك ..

فى اليوم التالى أرسل شقيقته اليهم تعلنهم برغبته .. وانه يترك لها الشبكة هدية منه ، لكنها عادت تحمل السوار الثمين الذى رفضت العروس ـ السابقة ـ قبوله رغم كل الالحاح ..

فى ذلك اليوم لم تستطع الأم السيطرة على دموعها فتركتها تنهمر .. الغريب أنها لم تبك عند خروج خديجة لأداء مهمتها ،

لكنها انفجرت فى النحيب عندما عادت منها ! ، فماذا كانت تتوقع ؟ .. ان تصمم العروس على استمرار الارتباط به .. كما يحدث فى الأفلام العربية ؟ ، عموما كان الله رحيما بالأم الطيبة فانهى عذابها حين اختارها الى جواره .. رحلت وهى محسورة عليه ..

بعدها تولت خديجة الاهتمـــام بأمره .. لكنها لم تكن تستطيع ترك أولادهـــا والتفرغ له .. وهنا تفتق ذهنهـــا عن فكرة .. شقيقها الأصغر عماد .. كان قد توقف عن دراســـته بعد أربع سنوات فى الثانوية العامة .. رسب لمدة عامين .. ثم حصل عليها بمجموع ضئيل لم يمكنه من الالتحـــاق بأية كلية فى العامين التاليين ، مع ذلك رفض رأى باقى الأشـــقاء والشقيقات باعادة الامتحان للمرة الخامسة رغم الحاحهم ، عندها اقترحت خديجـــة أن يرافق شقيقه ويقوم على قضـــاء بعض مصالحه الصغيرة بضعـــة أشهر حتى يستقر رأيه على العودة للدراسة أو يلتحق بعمل .. وانثنت فقررت له مبلغا شهريا من معـــاش أشرف كمصروف يد .. لكن الأمر المؤقت أصـــبح دائما ، وامتدت الشهور الى أعوام ، فكل من الشقيقين كان به سعيدا .. أشرف ضمن أن يجد من يؤنس أوقاته .. وعماد وجد عمل المرافق ظريفا حيث كان كل ما يقوم به أن يحلق له ذقنه ثم يقود له السيارة حتى مركز التأهيل لعمل العـــلاج

الطبيعى .. أو الى النادى حيث يجلسه فى مكان مشمس ثم ينصرف هو لممارسة بعض رياضاته ، وفى المساء عندما يضيق بالتليفزيون يلاعبه الطاولة أو الورق أو الدومينو ..

مرة أخرى يحمد أشرف ربه على حركة يده اليسرى .. فلولاها ما استطاع انفاق كل ذلك الوقت فى هذه الألعاب .. ولما ابتهج وضحك من قلبه بهذه الصورة .. عندما يتغلب على منافسيه جميعا ..

الأيام السعيدة تعدو بسرعة كبيرة .. والأيام الصعبة تزحف ببطء شديد ، لكنها كلها على أى الأحوال تمر ، سبع سنوات مرت على اصابة أشرف ولا أحد فى الأسرة فكر ان هناك شيئا ما ينقصه .. صدق من قال بأن الذى يغمس يده فى الماء لا يستطيع أن يشعر بعذاب من تلتهب يده بالنار .. ليست يده فقط . وقلبه وفكره .. آلام مريرة وقاسية ادخرها طويلا فى دهاليز أعماقه المظلمة ، ليال كثيرة قضاها فى أرق ، ترى هل كتب عليه أن يقضى بقية رحلة الحياة دون شريك يأتلف به ويحلم معه .. شريك يحس أنه شغله الشاغل وكل دنياه ؟ ، ولكن .. من عساها ترضى به ؟ .. وأين يجدها ؟ .. وكيف يطلب زواجها ؟ .. كان الأمر يصبح أكثر سهولة لو أن خديجة قامت به ..

فكرت واختارت وفاوضت ، لكنهم على ما يبدو يعتقدون أن من حرم حواسه ينبغى أن يحرم من باقى حقوقه فى الحياة ! ، لدرجة انهم بدأوا ينصحون عماد أن يقوم بانشاء مشروع أو مكتب حتى تصبح له حيثية عندما يفكر فى الزواج .. خاصة ومشكلة الاقامة محلولة .. حيث الشقة التى منحتها القوات المسلحة لأشرف ـ والتى لم يبق على تسلمها غير أشهر معدودة ـ كبيرة وفيها متسع !! .

حسنا .. عليه هو اذن أن يعتمد على نفسه .. ان يسبح ضد الأحزان ، طبعا لم يفكر فى أى من فتيات نادى الضباط الأنيقات .. عندما يتزوج مثله ينبغى أن تكون زيجة أشبه بالصفقة .. حيث يقدم كل من الطرفين بعض التنازلات فى الاختيار ، للحال قفز أمامه اسم صفاء .. الممرضة معه بمدينة الوفاء .. طيبة حنون ، وهذا أهم شىء ، عندها استعداد للعطاء والتضحية من أجل الآخرين ، كان يستلطفها رغم حظها القليل من الجمال .. ويبدو انها بدورها كانت تستلطفه والا فلماذا دائما تختاره هو دون الجميع لتشكو اليه همومها؟، وهى صغيرة ومرغوبة ، مات والدها فاضطرت أن ترفض الزواج لتربى اخوتها .. وها هم قد كبروا وانصرف كل الى حياته .

وحاول أن يستجدى الآمال وسط حضيض اليأس .. تقدم ـ عن طريق الاشارة ـ يطلب منها الزواج ، وطلبت مهلة

للتفكير وسؤال الأشقاء ، ثم زفت اليه بشرى الموافقة .. أحس يومها أن الدنيا بأسرها لا تسع فرحته ، أخيرا سيشعر أنه انسان طبيعى .. مثله مثل سواه .. له حياته الخاصة وأسرته الخاصة ، زوجة وربما أيضا أولاد ، قبل أن يفاتح أسرته أبلغ الأمر لطبيبه ..

الطبيب سر جدا ووافق بكل حماس .. كما أيد اختياره وأكد له انها خير من تصلح له ، على العكس منه تماما كان رد فعل شقيقه المهندس خليل .. شهق .. نظر اليه بذهول وهو يردد :

ـ تتزوج ؟ .. معقول ؟ ومن هى ؟ . وهل وافقت ؟ . كيف .. ؟

خف الطبيب لمساعدة أشرف فأجاب نيابة عنه :

ـ الآنسة صفاء .. الممرضة هنا .. أخلاقها ممتازة .

جاء الممرض ليصحب أشرف لجلسة العلاج الطبيعى فالتفت خليل للطبيب مستنكرا :

ـ ما هذا الجنون ؟ .. هل يستطيع أشرف أن يكون زوجا بالفعل ؟

ـ بالتأكيد .. هو ـ من هذه الناحية ـ طبيعى تماما ، الحقيقة كنت أتوقع أن يسألنى أحدكم هذا السؤال من

أعوام .. حتى اذا تأكدتم منه عملتم على مساعدته فى البحث عن عروس تناسبه ، لا تتصـــور كم سيفيده ذلك .. احساسه انه شخص عادى سيحسن من نفسيته .. وسينعكس ذلك على حالته الصحية .

ـــ حسنا .. أرجو أن تعطينى عنوانها حتى تتحرى عنها ، وأخبر أشرف أننا سنرد عليه برأينا فى الأسبوع القادم ..

فى ذلك اليوم دق جرس التليفون فى أربعة منازل ليقول المتحدث جملة واحدة :

ـــ أريد أن أراك اليوم لأمر شديد الأهمية ! .

عندما التأم شمل الاخوة الخمسة قص خليل الأمر على الباقين وهو يستنكره بشدة .. الشقيق الأصغر عماد شاركه الرفض .. كذلك الشقيقة عنايات ، أما خديجـــة فكانت فى حيرة .. الوحيد الذى أيد فكرة الزواج .. المحاسب سمير :

ـــ ولم لا لندعه يجرب حظه ..

احتد خليل :

ـــ هل تعرفون معنى هـــذا .. ستستولى هذه الفتـــاة على أشرف تماما .. وعلى كل ما يحيط ويتمتع به من ميزات مادية ومعنوية وتبعدنا نحن عنه نهائيا ، وبالتأكيد هى ما قبلت

زواجه الا طمعا فى ذلك ، وطبعا نحن نكون قد ظلمناه وأضررنا به اذا وافقنا على زواجه من فتاة لا ترغب فيه وانما فى منافع مادية .

رد سمير باستياء :

ـ ونحن عندما كنا نشاركه هذه المنافع .. هل كان معناه اننا طامعون فيه بدورنا ؟ ..

قالت عنايات :

ـ الأمر مختلف تماما .. هو شقيقنا من أول الأمر .. أما هذه الفتاة فهى تقبله باصابته .. لماذا ؟ .. طبعا للاستفادة ، واضح انها استغلالية .. هى وأسرتها . الذين سوف يكونون معها جمعية المنتفعين بخيرات أشرف ، نحن طبعا ما كنا أبدا نتمنى له هذه الاصابة .. لكنها حدثت واستتبعتها هذه المزايا ـ وهى حقه ـ فمن أولى بها .. أسرته .. أم أسرة غريبة عنه تماما تقبع متربصة للانقباض على ما يلوح من مغانم ؟ ...

قالت خديجة :

ـ رأى الطبيب مهم أن زواجه يرفع معنوياته .. لكن هذه الفتاة ليست من مستوى أسرتنا اطلاقا .. لذلك فانا لا استريح لهذه المصاهرة ، وما دامت تتزوجه على طمع فلن

يكون قلبها عليه لتخلص فى خدمتـــه ورعايته .. وهـــذا أمر يقلقنى جدا ..

تنهد عمـــاد :

ـ لو كنـــا نعلم ان هـــذا الزواج فى صـــالح أشرف لمـــا ترددنا فى تأييده .. لكن الأمر أخطر من ذلك ، لو وافقنا فاننا نكون قد فتحنـــا للخيانة ان تدخل منزلنا من أوســـع الأبواب ، ولن يلمها أحد .. فهى فى مقتبل العمر وقمة الحيوية والانطلاق وهو ..

أكمل خليل :

ـ وطبعا ستحرص العروس المصونة على أن يكون لها طفل .. وستنجبه من أى طريق ، وهكذا قد تأتى لنا بابن سفاح ينتسب لأسرتنا ويرث كل نصيب أشرف .. ويكون مطلوبا منا جميعا أن نهتم به ونكرس جهودنا لرعايته ! ..

فى اليوم المحدد لابلاغ أشرف رأى الأسرة فى العروس .. استأذن من الاخصـــائى قبل نهاية جلسة العلاج الطبيعى وعاد الى جناحه .. قبل ان يقترب منه أخبره الفراش بوجود اخوته بالداخل .. الأمر الذى جعله يتهلل فرحا .. لكن فرحته خرت صريعة كلمات الأشقاء الأعزاء ، خرج لا يلوى على شىء وقد

اجتاحته سيول الأحزان التى تكتسح أمامهـا آخر حصـون العقل .. حتى لم يدر ماذا يفعل بنفسه ..

قلقت خديجة لتأخره فخرجت من جناحه لتسأل عنه فى « الجمنازيوم » .. لم تجده هنـاك فراحت تبحث عنه حتى وجدته فى المكتبة .. وحيدا يلفه الصمت .. صمت بليغ يغطى على كل الأصـوات ، نادت عليه .. رغم سماعه النداء لم يلتفت اليها .. كان يبكى .. لكنه بكاء داخلى غير منظور للآخرين ، لقد كان يود أن يقول لها الكثير .. يود أن يسألها : ألا يكفينى ان حرمت .. وأنا بعد فى مقتبل حيـاتى .. نعمتى النطق والحـركة .. حتى تحكمون على بالحرمان من حقى الطبيعى فى الحياة ؟ كانت أول مرة منذ سنوات أفرح فيهـا فرحا كبيرا .. فلماذا تساعدون القدر على أن يسرق فرحتى ؟ هل تأخرت يوما عن طلب أى شىء أردتموه منذ اصابتى ؟ لمـاذا تؤكدون ان موافقة صفاء على زواجى كانت من قبيل الطمع .. هل من المستحيل أن تحبنى .. ألست انسانا .. أو يحتمل انها أشفقت على .. والشفقة أحيانا ممر يوصـل للحب .. أو ربما حتى تآلفنا ، لمـاذا ترجحون انهـا ستخوننى وأنـا متأكد من قدرتى أن أكون زوجا طبيعيا .. عدا اننى سأوفر لها حياة رغدة .. ألأننى مقعد حتى لا أستطيع مراقبتهـا .. لمـاذا لا يكون لها من خلقها أو تدينهـا ما يعصمها ؟ لمـاذا

تحرمونى أن تكون لى شريكة أسكن اليها ؟ لماذا تمنعونى ان أجرب حظى ؟ لماذا ولماذا ولماذا .. عشرات الأسئلة المريرة أراد أن يوجهها اليها .. لكنه بوسيلته القاصرة .. الاشارة .. يستغرق وقتا طويلا كى يستطيع توصيل جملة واحدة لمن أمامه ، فكم سيستغرق لشرح كل هذه الأسئلة ؟.. لا داعى اذن لأى حوار . لكن خديجة تعاود النداء :

ـ أشرف .. أشرف .. ما بالك ؟

رفع رأسه ونظر اليها .. نظرة واحدة .. ثم عاد يلتفت ناحية أرفف الكتب ، ماذا فعلت هذه النظرة بخديجة ؟ .. أحست كأنها تترنح لدرجة أن اضطرت للامساك بحافة كرسيه .. حتى لا تسقط ، فى هذه النظرة ـ الوحيدة ـ قرأت كل ما كان يمور داخله من أسئلة وعتاب ، حمدا لله أن ألهمها التصرف السريع .. حاولت أن تكسب صوتها رنة المرح وهى تعانق شقيقها وتقبله :

ـ مبروك .. تحرينا عن صفاء وعرفنا انها من أسرة طيبة .. لذلك انتهينا للموافقة بعد أن أثيرت بعض التحفظات ، متى اذن تريد أن نذهب معك لتقدم اليها الشبكة ؟ ..

خبر بمليون جنيـــه

لم يكن قد مضى على بداية العمل فى المكتب أكثر من ســاعة .. عنــدما اندفع عاطف ــ وهو زميــل من ادارة أخرى ــ داخلا كما قذيفة أطلقها أحد مدافع الميدان .. هتف :

ــ عندى خبر بمليون جنيه ! ..

قال أكثر من زميل وزميلة فى نفس واحد :

ــ هيــه ؟ ..

ــ خــير ؟ ..

ــ أى خبر ؟ ..

تروى عاطف قليلا كأنما ليزيد من جرعة الفضــول عند بقية الزملاء .. ثم بدأ يحكى :

ـ تصوروا .. فؤاد بك .. المدير العام .. متزوج منذ شهور من سكرتيرته ناريمان دون أن يعلم أحد !! ..

كان الخبر مثيرا ومذهلا الى درجة كبيرة .. جعلت الزملاء والزميلات الخمسة الذين يشاركونى ـ أو اشاركهم ـ غرفة مكتبنا الواسعة الواسعة يتصايحون كل بكلمة :

ـ معقول ؟ ! .. قل كلاما غير هذا يا عاطف ..

ـ لكن .. كيف عرفت اذن ؟

ـ هل أنت متأكد مما تقول ؟

ـ زواج زواج بجد ؟

ـ وهل عرفت زوجته ؟ ..

أنا الوحيدة التى لم تنطق .. رغم أن الخبر أذهلنى بدورى ، لكن على ما يبدو كان انشغالى بمتاعبى أكبر من ان يترك لتفكيرى فسحة من الاهتمام بشىء خارج دائرتها ، اكتفيت بأن تطلعت الى الزميل القادم بالخبر الغريب فى دهشة .. بينما راح هو يكمل تفاصيل الموضوع ردا على أسئلة الزملاء..

ـ من دقائق جاءت زوجته واتجهت مباشرة الى مكتب ناريمان وأخذت تصرخ فى وجهها وهى تكيل لها التهم ، ثم انثنت الى زوجها .. سيادة المدير العام وراحت تصيح فيه وهى

تسبه بأفظع السباب ، حتى لقد تجمهر على صوتها أغلب موظفى الشركة .. حيث استمتعوا بالمسرحية الثلاثية الشيقة !

عادت الأسئلة تتطاير من بعض الزملاء والزميلات ..

ـ وهل اعترف المدير بالزواج فعلا ؟

ـ لكن كيف عرفت الزوجة رغم أن العجوز المكار استطاع اخفاء الأمر عنا جميعا ؟ ..

أجاب عاطف :

ـ قالت ان مكالمة تليفونية جاءتها هذا الصباح ، تصوروا .. أغلب الزملاء ظن أن المكالمة كانت من ناريمان نفسها حتى ترغم المدير على اعلان زواجهما بعد هذه الفضيحة المدوية ، لكن هل تصدقون .. رغم ما عانيته شخصيا من سيادة المدير .. اقسم رثيت له وهو يحاول ـ أمام موظفيه ـ أن يجمع أشلاء كرامته التى تبعثرت فى كل اتجاه ! ..

بالصورة التى نقلها لنا عاطف فان المدير يكون فعلا فى موقف لا يحسد عليه ، هززت كتفى .. أنا أيضا فى موقف لا أحسد عليه ، والقياس مع الفارق .. فارق كبير .. مشكلته هو الذى تسبب فيها .. من العدل اذن أن يتعذب من جرائها ، بالنسبة لى .. لم أكن أنا التى جعلت ذلك الموظف يخطىء فيصرف له مبلغا يزيد بكثير عما استحق فى التسوية التى تمت

لحالتى ، من ثم يكون ظلما ان اتحمل أنا نتيجة هذا الخطأ ، المصيبة الكبرى كانت فى التوقيت الذى تم فيه اكتشاف الخطأ .. بعد اتمام زيجة ابنتى الوحيدة بشهر واحد .. تلك الزيجة التى انفقت فيها آخر قرش امتلكه . وكأن الحياة تنصب لى فخاخها فى مفترق الطريق ! ..

رحم الله زوجى الراحل ــ وكأنه كان يعلم الغيب ــ تعاقد على بوليصة تأمين باسم ابنتنا ، غير البوليصة الخاصة بالأسرة ككل ، قال لى يومها بصوت انساب ــ رغم شجنه ــ كشلالات من حرير :

ــ أكبر أمانى وأحلاها .. أن أرى ابنتنا « مها » تتألق فى ثياب العرس الناصعة .. لكن من يدرى اذا كان الله سيمد فى عمرى لأشهد هذا اليوم أم لا .. لذلك رتبت له من الآن حتى لا يثقل العبء كاهلك اذا قدر الله لك أن تواجهيه وحيدة .

قبل أن يتم جملته أسرعت أضع يدى بلهفة شديدة فوق شفتيه ، وكأننى بذلك لا أمنعه هو فقط من قول ما لا أشتهيه.. بل وأمنع حدوثه أيضا ! ، ولكن .. هيهات أن تستطيع يدى الضعيفة منع يد القدر .. فكان الفراق .. فراق الأبد ، المهم وأنا أقبض مبلغ التأمين حمدت لزوجى تفكيره البعيد .. بيد أن هذا المبلغ الذى كان يمكنه وقتها أن يجهز عروسا بالكامل .. لا يستطيع اليوم شراء غرفة واحدة ! ..

وظللت أدور هنا وهناك حول نفسى .. بعت كل ما أملك من مصاغ وأسهم وسندات ، لكن كل ذلك لم يكف .. بدت الأسعار وكأنها أصيبت بالجنون ، لم أشعر بان النقود شيء مهم الا فى تلك الفترة .. أمام مستحدثات من متطلبات العصر وحتميات الحياة ، طوال عمرى لا اهتم بها .. لم تكن لى طموحات كبيرة فظننت اننى ما دمت أستطيع أن ألبى لأولادى كل ما يريدون من طلبات معقولة .. فاذن لا ينقصنا شيء ، بعد بضع جولات فى الأسـواق بدأ القلق ينشب مخالبه فى قلبى .. وجولات تاليات ملأت فمى بطعم المرارة .. أرى أمامى قطع الأثاث الفاخر لكن أسعارها فاحشـة ، كم تمنيت أن أحضر لابنتى أجمل ما فى المحلات ولكن ..

عموما اذا لم أستطع شراء أفخر جهـاز فلا أقل من أن يكون شيئا محترما .. بحيث يجمع بين المتانة والذوق الجميل ، وحمدت الله ان وفقت فى ذلك بالنسبة للأثاث .. لكن كل ما استطعت تدبيره نفد ومازالت هنـاك بعض الأشياء الهامة لم تشتر بعد .. كالسجاد والستائر ، كنت فى حاجة فقط لمبلغ ألف جنيه ، ورغم ضآلة المبلغ ـ الذى قد تنفقه أسرة فى ليلة واحدة ـ وقفت أمامه عاجزة .. لدرجة ارقتنى عدة ليال .. تسلل النوم فيها لائذا بالفرار .. غير مستمع الى توسلاتى له أن يعود ، حتى جاءتنى صديقة عزيزة بفكرة جمعية مع عدد من

الصديقات على عشرين شهرا .. شريطة أن أقبضها أنا فى أول شـــهر ..

الفكرة لا بأس بها .. لكن جانبها المزعج يكمن فى الاجابة على سؤال هام .. هل أستطيع تدبير حياتنا بباقى دخلنـــا بعد أن اقتطع منه مبلغ الخمسين جنيها قسط الجمعية .. ذلك عدا نقص مبلغ مماثل سبق اقتطاعه ببيع الأسهم والسندات ذات الفائدة ؟ . ووجدت انه ليس من حقى ان أنفرد بالاجابة على السؤال .. فانتهزت فرصـــة خروج مها فى بعض شأنها وجمعت أولادى الثلاثة .. علاء طالب الطب .. وممـــدوح بالثانوى وخالد بالاعدادى ، وطرحت سؤالى .

ـــ هل تقبلون أن تتقشف طوال عشرين شهرا حتى أكمل لشقيقتكم جهازها ؟ ..

فى الحال أجاب ممدوح وخالد بالموافقة بصوت عال .. أما علاء فنكس وجهه للأرض وقد علته تقطيبة كبيرة .. فهمت منها انه ليس متحمسا لقبول هذه التضحية ، لكن ما كان أشد تأثرى عندما تمتم لى بصـــوت كأنه مشبع بقطرات الأسى المرة المذاق :

ـــ هل تصدقين يا أمى اننى أثناء انتظارى لنتيجة الثانوية العامة .. تمنيت الا أحصل على مجموع يدخلنى كليـــة الطب ؟

صحيح أثناء الامتحان بذلت أقصى جهدى كتصرف تلقائى ، لكنى ، أعلم دخلنا .. وطبعا كان سيؤلمنى أن أحصل على مجموع كبير يحقق حلم حياتى .. كلية الطب مع ذلك لا التحق بها ، فى نفس الوقت لو دخلتها سأحس بالذنب ان كلفتك فوق طاقتك . لذلك تمنيت أن أحصل على مجموع متوسط .. لكن الله أراد غير ذلك ، وأنت أيضا صممت ، عموما لابد أن تشترى لها كل ما تحتاجه .. وأنا أستطيع أن أعمل و ...

قمت من مكانى احتضنه ــ رجلى الصغير ــ مقاطعة :

ــ لا .. لا .. لن يصل الأمر لهذا الحد ، وفقط سوف نستغنى عن المصيف هذا العام ، وأيضا بعض الملابس الجديدة وما أشبه .

أثناء حفل الزفاف كنت أبكى .. لأشياء عديدة ، فراق ابنتى .. غياب زوجى الذى تمنى ــ من كل قلبه ــ رؤية هذا اليوم .. سعادتى بشقة عروسى الحلوة .. كما جنة .. أنا التى صنعتها بنفسى ! ..

لكن القدر لا يهملنى أستشعر طعم السعادة فى فمى طويلا، منذ أيام أخبرنى وكيل الادارة أن تسويات العام الماضى كانت خاطئة .. من ثم لم تكن المبالغ التى قبضتها من حقى ، لذلك فان الشركة لابد أن تستردها . ومن قبيل التيسير سوف تقسط المبلغ على سنة كاملة ، وبحسبة بسيطة وجدت أن المبلغ

المستقطع من راتبى لن يقل عن خمسين جنيها شهريا ، واجتاحتنى سيول الهموم ، هل هـذا معقول يا الهى ؟ .. هل يستطيع دخلنا ان يتحمل خفضا ثانيا .. أو للدقة ثالثا ؟ .. ومن أى البنود يمكن أن أفعل ؟ ..

الزملاء والزميلات من حولى يلغطون .. وان أحسست للحظات كان أصواتهم تنحشر مقتولة فى فتحتى أذنى .. فى حين تحولت وجوههم الى تماثيل شمعية متجمدة ! هززت رأسى بشـدة فعدت أميز أقوالهم .. ما زالوا يدورون حول الخبر الذى أتاهم به عاطف .. زواج مديرنا العام .. كل يعلق بما يعن له ، قال زميل :

ـ معه حـق يا جمـاعة .. زوجتـه شـديدة الدمامة والضخامة ، ليس ذلك فقط .. لكنها أيضا متسلطة عليه جدا ، هذا الذى لم يسلم من عنجهيته موظف واحد فى الشركة كبر أم صغر .. كان يقف أمامها مرتعشا !

وأمنت زميلة ثانية : فعلا لقد رأيتهما معا فى بعض الحفلات أو فى النادى .. وما كان أسعدنى بهذه اللقاءات وكأننى أنـا كنت أتقمص شخصـية زوجتـه فاقتص منه على ما كان يفعله بنا ! ..

وقلبت زميـلة ثالثة شفتيها : ولكن ما الذى أعجبـه فى ناريمان ؟ ليست بارعة الجمال .. بل انها لا تعرف حتى كيف تختار ملابسها ..

غمز زميل رابع بعينـــه : لا تبدو جميلة لكنهـــا تتمتع بما يصفونه بالسكس ابيل .. أو الجاذبيـــة .. شيء لا يفهمه سوى الرجال ! ..

وبدت الزميلة الخامسة متأثرة : مسكينة زوجته .. مهما قيل عنها فهو الذى اختارها .. لكن هكذا الرجال جميعا .. ليس لهم أمان ! ..

خبط عاطف كفا بكف :

ـ تقولين مسكينة زوجته ؟ .. بل هو المسكين .. لم ترى ما فعلته معه ..

سألت زميلة : وهل ما زالت زوجة المدير عنده فوق ؟

ـ لا طبعا .. بعد فشلنا فى تهدئتها .. هرب المدير هو وناريمان .. وخلفهما هرولت الزوجة ..

هتفت زميلة ثانية : يا ى .. خسارة .. كان المراقب قد عرض علينا الانتقـــال من هـــذا المكتب البعيـــد ورفضتم ، أعجبكم هذا ؟ .. ها نحن لم نر أى شيء من هـــذه المشـــاهد البديعة ! ..

قال ثالث : فعلا كنت أتمنى رؤية المدير فى هـــذا الموقف، الذى أعتقد ان الله عاقبه به على اساءته لى الأسبوع المـــاضى.. آى والله انه ذنبى ! ..

تساءلت الرابعة : وماذا عساه سيتصرف يا ترى ؟ .. هل

يتحدى زوجته ويقف فى وجهها معلنا زواجه من سكرتيرته .. أم يجبن عن ذلك فيضطر لطلاق ناريمان ؟ ..

ضحك الخامس : اذا حدث هـذا وكانت ناريمان فعلا هى التى تحدثت للزوجة فانها تكون قد جنت على نفسها .. هـذه المكالمة سلاح ذو حدين ! ..

غارقة أنا ومستغرقة تماما فى همومى .. أحاول ـ عبثا ـ أن أجد لها أى حل ، متخذة من ابتسامة لا معنى لها ارتديتها فوق وجهى .. ستارا يخفى ما بداخلى .. ما كاد عاطف يخرج من المكتب حتى دخل أحد السعاه يحمل منشورا :

ـ هل فى هذا المكتب أحد ممن طبقت عليهم تسـويات العام المـاضى ؟

رددت باكتئاب : أنا ..

ـ حسنا .. أرجو أن توقعى على هذا المنشور بالعلم ..

آه .. لابد انه المنشور الذى يحوى طريقة ومبلغ الخصم من راتبى .. عجبا .. أعدوه بهـذه السرعة ؟ ، مددت يدى وأخـذت الورقـة باستسلام ، رغم تخمينى لمـا تحوى قمت بقراءتها .. من باب العلم بالشىء .. لدهشتى وجدتها تتضمن فتوى الشئون القانونيـة بعدم قانونية استرداد المبـالغ من مرتباتنا .. من ثم اعتبر الموضوع منتهيا عند هـذا الحد ، تنفست الصعداء وأنا أوقع المنشور ، ما كاد السـاعى يغـادر

المكتب حتى التفت الى باقى الزمـلاء والزميـلات وأنا أقول بمرح :

ـ أغرب ما يدهشنى انه طوال تلك الفترة .. لم يستطع أحد أن يكتشف العلاقة الخفية بين المدير وسكرتيرته ، أمامنا كان دائما المدير الخطير الوقور .. حقا ما يقال ان « تحت الساهى دواهى » .

دهشـت أنا نفسى من نفسى .. اننى أخيرا أقبـل على الزملاء واتبـادل معهم المزاح ، هـذا الجهـاز الصغير البالغ التعقيد .. المخ .. ماذا يفعل به خبر صغير .. وماذا يفعل هو بنا ؟ .. فى ثوان تنتقل بين الكآبة .. الفرح .. الذهول .. التهريج الانطواء الخ الخ » ، منذ قليل لم تكن عندى الرغبة فى مشاركة زملائى مرحهم .. بل ربما لم تكن عندى حتى القدرة على ذلك ! نظرت لى زميلتى « هناء » من فوق مكتبها البعيد بدهشـة :

ـ هأنت قد نطقت .. لقد شعرنا جميعا بالحيرة عندما رأيناك لا تهتزين للخبر .. رغم ان عاطف كان محقا عندما قال انه خبر بمليون جنيه ..

تمتمت وكأننى أحـدث نفسى وان كنت طبعـا أعنى شيئا آخر :

ـ فعلا .. كان خبرا بمليون جنيه ! ..

أوافــق بشــرط

كان يمكن ان تتصور منال وقوع أى شىء .. الشمس تشرق من الغرب .. النهر يتفجر فى قلب الصحراء .. الذئب يأخذ الحمل بالأحضــان والقبــلات .. أو أو .. أى شىء ولا تتصور هــذا الذى رأته اليوم ! ، حمدى زوجها ووالده الحاج حسين .. يواجه احدهما الآخر والغضب مرتسم على وجهيهما بصــورة صارخة .. حتى ليكاد الشرر ان يتطــاير من عيونهما !! ..

لم يكونا مجرد أب وابنه ، بل كانا صديقين .. حبيبين.. تضرب بعلاقتهما الأمثال ، منذ ماتت والدة حمدى ــ عندما كان

فى المدرسة الابتدائية ـ وهما متلازمان ، الأب رفض الزواج مرة أخرى .. وكرس حياته وجهده وعواطفه من أجل رعاية ابنه الوحيد .. الذى أصبح كل العالم .. عالم والده على الأقل ، جعل من رموش عينيه سياجا يحميه من أى متاعب أو أخطار ، كانت سعادته الوحيدة ان يرقبه وهو ينمو .. وينتقل من مرحلة دراسية لأخرى أكبر .. حتى حصل على درجته الجامعية ، عندها ذهب الى رؤسائه فى العمل ـ وكان محبوبا منهم لحسن خصاله ـ فوافقوا على تعيين حمدى بالشركة .. وهكذا أصبحا معا فى العمل وفى البيت .. يخرجان معا ويعودان معا .

الغريب انه حتى الخلافات العادية بين أب وابنه .. التى يحتمها فارق السن واختلاف النظر بين الأجيال .. لم تقع بين الحاج حسين وابنه ! ، عندما حصل حمدى على الثانوية العامة رغب الالتحاق بكلية التجارة .. وقبل ان يفاتح والده برغبته فوجىء به يرشح نفس الكلية ! ، وعندما أحب ابنة جيرانهم « منال » .. خشى اعتراض والده لبساطة أسرتها ماديا .. واذا بالوالد نفسه يزكيها له ويمتدح أخلاقها ويعرض عليه أن يخطبها له ! ، ثم يذلل له كل الصعاب .. شهادات الاستثمار التى تركتها والدته .. وأيضا التى كان يمتلكها هو .. وضعها كلها أمامه ، لكن المشكلة التى لم يستطع لها حلا كانت ـ كالعادة ـ

الشقة ، حيث فضـــل الحاج حسين لابنه ان يستقل عنه .. كان يعرف شـــدة تعلق حمدى به فقدر ان ذلك يمكن أن يضـــايق أى عروس ، أيضا أحس ان صحته لم تعد على ما يرام .. حتى بات يظن أن سجله الانسانى الطويل أوشك على اغلاق صفحته الأخيرة ، وتصور أن يمهد لدى حمدى بالافتراق فى السكن .. قبل الفراق الأخير حتى تكون الصـــدمة بعد ذلك أخف وطأة !، انطلقا يبحثان عن شقة .. لكنهما تعبا كثيرا دون فائدة ، حتى ظهرت أخيرا ــ وبعد بحث مضن ــ شقة صغيرة من غرفـــة واحدة وصالة بخلو بسيط ، قال حمدى :

ــ ما دمنا لم نجد سواها فأمرى لله ..

لكن الأب يهتف :

ــ معقول ؟ ! ، وبعد أن تنجب فكيف تعيش ؟ ، آه .. لقد خطرت لى فكرة .. آخذ أنا الشقة الصغيرة وتتزوج أنت فى شقتنا هـــذه بعد أن تعيد طلاءها ..

اعترض حمدى :

ــ لا يمكن أن أقبل هذه التضحية ..

ــ ولا تضحيـــة ولا شىء .. أنا وحدانى ولن تلزمنى سوى غرفة واحدة ، على العكس ستكون أنت الذى خدمتنى.. حيث نظافتها ستغدو اسهل ! ..

بعد زواج حمدى ظلت علاقات الحب بين الحاج حسين وابنه على ما يرام .. بل ازدادت بعد أن جاءت الحفيدتان الغاليتان .. الواحدة بعد الأخرى ، رتب الحاج حسين يوما فى الأسبوع يقضيه عند حمدى .. ويوما آخر يذهبون هم اليه ، ظل هذا النظام ـ كأنه دوران الأرض حول الشمس ـ ثابتا لا يتغير .. فى ترنيمة جميلة ظنوها أبدية .. ستظل حتى نهاية الحياة ، لكن فجأة تحدث الكارثة .. البيت الذى يسكنه حمدى آل الى السقوط .. من ثم أمرت البلدية بسرعة اخلائه .. وفعلا خلال شهر واحد من التقرير انهار البيت وأصبح كومة من تراب ، والحمد لله ان المنزل الأصيل لم يفعلها الا بعد أن غادره آخر ساكن ! ..

لم يكن أمام حمدى الا أن يذهب الى شقة والده حيث شقة والد منال مزدحمة باخوتها الصغار ، ورحب الأب الطيب بهم .. صمم أن يأخذوا حجرته لينام فيها .. واكتفى هو بأن ينام فى الصالة .. على كنبة تفتح بالليل لتصبح سريرا ، طبعا نوم الابن وزوجته وطفلتيه فى غرفة واحدة أمر غير مريح .. لكن ذلك لم يضايق حمدى كثيرا .. وكل الذى اهمه وحز فى نفسه .. الراحة التى افتقدها والده منذ أن حضروا عنده ، انه طبعا لا يستطيع أن ينام فترة بعد الظهر .. حيث على كنبته تذاكر البنتان وتتفرجان على التليفزيون .. فى وقت فراغهما ،

أما أثناء المذاكرة فلا أحد يستطيع فتح التليفزيون حتى لو كان بيث برنامجا يروق للجد ، وهـكذا حددت له مواعيـد كل أموره .. ولم يعد حرا فى شىء قط .

الحاج حسين على العكس لم يهتم بهذا الأمر كثيرا .. وكل ما كان يقلقه عدم راحة ابنه فى علبة السردين هـذه ، اعتاد أن يصحب حفيدتيه الى نزهة فى الحديقة المجـاورة مرتين فى الأسبوع ..

حمدى طبعا لم يسكت ، سعى هنا وهنـاك .. لكنه كان كمن يقرع أبوابا صـماء ! ، ذهب الى المسـئولين فى وزارة الاسكان الذين وعدوه بشقة من شقق الايواء .. مثل كل الأسر التى انهارت منازلها ، لكن كانت هنـاك قائمة انتظار تحوى اسماء العديد ممن تهدمت بيوتهم .. واذن دوره لم يأت بعد ، لم يتكل حمدى على هـذا الوعد وانطلق يبحث عن شقة عند أصحاب العمارات ، لكن ذلك على ما يبدو كان أبعد منالا من الغول والعنقاء والخل الوفى ، عهد الايجـار كان قد انتهى من زمن بعيد وأصبحت جميع المساكن للتمليك ، وأسعار الشقق .. كأسعار أى شىء آخر .. قد أصابها مس من الجنون، الشقة بحد أدنى خمسين ألفا .. ودون حد أقصى ، أيضـا شركته كانت تعد عدتها لافتتـاح فرع لها فى احـدى المدن الجديدة .. ولترغيب العاملين فى النقل الى الفرع الجديد ..

أعلنت ان كل موظف يذهب الى هنـاك سيحصل على شـقة ، طبعـا القليل هم الذين تقدموا .. لبعد هـذه المدينـة عن العمران .. حمدى لم يكن من هـذا القليل ، لكن بعد تهدم منزله قدم طلبا للنقل .. وأيضا فعل والده ـ وهل يفترقان ؟ ـ وقد اعتاد أن يذهب كل أسبوع أو أسبوعين ليسأل عما اذا كان موعد افتتاح الفرع قد أصبح وشيكا ، لكن المسـئول يضيق بكثرة سـؤاله فيؤكد له انه هو الذى سـوف يرسل اليه ليخبره عندما يتحدد الموعد ، وهكذا انتهت كل محاولاته الى لا شيء ، الحقـائق عنيدة .. مثل الصخور الصلدة ، حتى حدث من أسبوعين ان دخل حمدى على منال وهو يكاد يبكى :

ـ هل أصبحت الدنيا مثل الغابة .. لابد أن يموت حيوان حتى يعيش حيوان آخر بأن يتغذى به ؟ ! ، أمن أجل أن أسعد وأرتاح يجب أن يموت أعز انسان لى .. أبى ؟ ! ..

وتحاول منال ان تهدىء من انفعاله .. فى حين راحت شفتاه تبعثران الكلمات .. حتى يتمالك نفسه فيقص عليهـا الأمر ، لقد خرج من غرفته فجرا للذهاب الى دورة المياه .. سار على أطراف أصابعه حتى لا يقلق والده .. ليكتشف انه جالس فى الظـلام يصلى ويدعو الله بالأمنيـات الطيبات .. يدعوه أن يأخذه الى رحابه حيث لم يعد من أحد بحاجة اليه ..

وحتى يرتاح ابنه وزوجته وطفلتاه عندما ينفردون بالشقة !! ، حاول أن ينام بعدها لكن النوم أبى أن يستضيف مهزوما .. كان كمن يتقلب على جمر من النار ، قال لها وهو فى طريقه الى عمله بعد ساعات :

ـ فى ظرف أسبوع أو أسبوعين .. لابد أن اتصرف ! ..

دارت هذه الذكريات فى خاطر منال وهى ترى زوجها وحماها فى حالة الغضب الشديدة هـذه ، لم يكن الأب عجوزا جدا .. مع ذلك بدا وجهه متغضنا كأنه ورقة مهملة كورتها يد عصبية ! ، وناداها زوجها ليطلب منها أن تدخل الحجرة مع البنتين وتغلق الباب لأنه يريد أن يتحدث مع والده على انفراد.. لكن الوالد يقاطعه :

ـ لا .. الأفضل يا منال يا بنتى ان تخرجى الى الحديقة مع هالة وهبة .. أريد حمدى فى شىء هام جدا ! ..

تدهش منال لكنها لا تملك الا أن تطيع ، وان حاولت ان تطيل فى فترة الباس البنتين .. ربما هدأ الرجلان أو احدهما .. لكنها تختلس النظر من خصـائص الباب لتجد الشرر ما زال يتطاير من العيون الأربعة ، بعد مغادرة منال الشقة يخرج حمدى ورقة من جيبه يعرضها على والده :

ـ هذا خطاب جاء من دار المسنين بالموافقة على اقامتك

بها .. كيف تظننى ؟ .. شخص جبان مجرد من الشعور حتى اقبل اخراجك من منزلك ؟ ..

بهدوء تحدث الحاج حسين :

ـ ذهابى الى بيت المسنين أهون من ذهابك انت الى السجن ، أظن السجن هو أخف عقاب لمروجى المخدرات ؟ ! ..

شهق حمدى :

ـ وما شأنى أنا بالمخدرات ؟ ..

نظر اليه نظرة ثاقبة تخترق الصخر ذاته .. وهو يسأله :

ـ أريدك أن تقول لى .. ما الذى أتى بالمعلم شفشق الى هنا منذ أسبوع ؟ ، الكل يعلم .. وحتى البوليس يعلم أنه يتاجر فى الصنف ، وفقط لم يستطيعوا أن يمسكوا به متلبسا لشدة احتياطه ، أما الغشيم مثلك فقد يسقط من أول عملية ، وحتى اذا لم يسقط .. فهل يمكن أن تمسك بيدك مالا حراما .. جاء من دم الشباب الذى سقط فى براثن الادمان ؟ ، هيه .. كم أخذت منه ؟ ..

طأطأ حمدى رأسه وهو يرد :

ـ اقسم لم آخذ منه شيئا بعد ، كنا ما نزال فى مرحلة الترتيب ! ..

فجأة رفع رأسه وقال بتحد ورائحة حريق الكلمات تفوح من شفتيه :

ـ تقول مالا حراما ؟ .. فهل عندك وسيلة حلال تأتينى بخمسين ألفا فى ظرف أسبوع ؟ .. اعذرنى .. لم أعد استطيع رؤيتك متعبا بسبب وجودنا معك .. الى هذه الدرجة .. كلما شاهدتك هـكذا اجتاحتنى سيول الهموم .. التى تكتسح أمامها آخر حصون العقل ! ..

رق صوت الحاج حسين حتى راح ينساب كشـلالات من حرير :

ـ يا بنى الأزمات لا تستمر الى الأبد .. وما دمنا ندعو الله بقلب مخلص فانه لابد مجيب ، ربك لا ينسى أبدا عبـاده الصابرين ، اسمع .. هات يدك .. عاهـدنى ان تقطع صلتك تماما بالمعلم شفشق ..

ـ أعدك .. بشرط أن تعدل أنت بدورك عن فكرة بيت المسنين .. تماما أيضا ! ..

انطفـأ الشرر من العيون .. وحلت محله لمعـة الحب والامتنان .. كل منهما للآخر .. قال الحاج حسين وهو يربت يد ابنه :

ـ أمامنا أكثر من أمل : شقق الايواء الحكومية .. مسكن فرع الشركة الجديد ، بل قد تحل على أهون سبب عن غير هذين الطريقين : مالك غير جشع يبنى للايجار ، والى أن يحدث أحد هذه الحلول .. فنحن حتى على وضعنا هذا .. أفضل كثيرا من سوانا ، اقسم لك انى بوجودكم تؤنسون وحدتى أسعد حالا بكثير عما كنت وحدى . ولا يقلقنى سوى أشفاقى أن تكونوا أنتم غير مرتاحين .. خاصة هبة وهالة .. اللتين لا تجدان فرصة للانطلاق وسط كل هذا الأثاث المكدس ، لكنى عموما ـ ولا تستطيع أن تنكر ذلك ـ احاول أن أحل .. أو أخفف بعض هذه المضايقات .. وآخذ حفيدتى للنزهة ، فالنزهة تسعد البنتين بالجرى والقفز .. وتسعدنى أنا حين أتذكر شبابى عندما كنت أصحبك أنت لذات الحديقة ..

توقف قليلا ثم ابتسم :

ـ وحتى أيضا أنت ومنال .. بالتأكيد تسعدكما هذه النزهات !! .

احسان كمال

عضو مؤسس وعضو مجلس ادارة كل من اتحاد الكتاب ونادى القصة وجمعية الأدباء •

نشرت ما يزيد على مائتين وخمسين قصة فى أغلب الصحف والمجلات المصرية والعربية •

لها سبع مجموعات قصصية :

١ ــ « سجن أملكه » عن هيئة الكتاب عام ١٩٦٥ •

٢ ــ « سطر مغلوط » عن الهيئة أيضا عام ١٩٧١ •

٣ ــ « أحلام العمر كله » عن روايات الهلال عام ١٩٧٦ •

٤ ــ وأيضا « الحب أبدا لا يموت » عن روايات الهلال عام ١٩٨١ •

٥ ــ « أقوى حب » عن كتاب اليوم عام ١٩٨٢ .

٦ ــ « لحن من السماء » عن هيئة الكتاب ع م ١٩٨٧ .

٧ ــ « ممنوع دخول الزوجات » عن كتاب اليوم عام ١٩٨٨ ، ولها أيضا مجموعة قصصية تحت الطبع فى دار المعارف .

حصلت على جائزة نادى القصة مرتين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٠ ، كما حصلت على ميدالية المجلس الأعلى للفنون والآداب عن أحسن قصص معركة أكتوبر عام ١٩٧٤ .

ترجمت قصصها الى سبع لغات عالمية : الانجليزية والسويدية والروسية والهولندية والصينية والعبرية . ذلك عدا مجموعة قصصية خاصة بها ترجمتها الى الفرنسية وأصدرتها احدى دور النشر الكبرى بباريس عام ١٩٩١ عنوانها « آدم لن يطرد من الجنة مرتين » .

حولت عشرات من أعمالها الى أفلام ومسلسلات وسهرات تليفزيونية

الفهـــرس

	الصفحة
من القـــدم الى الرأس	٣
جزء من قلبى هنـــاك	١٤
ماذا تفعل بنا أيها الحب	٨١
ضيفـــة الفجـــر	٩٣
أهـــم المســـــتندات	١٠٩
آلام الســـــعادة	١٢١
ســـر الخـــــاتم	١٣٤
العهـــد الأخـــير	١٤٨
لمـــاذا ولمـــاذا ولمـــاذا ؟	١٦١
خبر بمليون جنيـــه	١٧٧
أوافـــق بشـــرط	١٨٨

رقم الايداع ١٠٢٣١/١٩٩٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3213 — 6

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب